نهى محمود

السَّير في طرق ممتدة وبعيدة

قصص

كيان
Kayan
KAYAN PUBLISHING

السير في طرق هادئة
مُمتدة وبعيدة

السير في طرق هادئة
مُمتدة وبعيدة

نهى محمود

إلى أخي طارق

لابتسامتك التي تشعل النجوم

وإلى أخي محمد

حين تتوقف الديناصورات والنيازك

عن مطاردتك

الصغيرة

كانت تشعر بقدرٍ كبير من الرهبة وهي تحملها وتمضي في الطريق، تضمُّها لصدرها، ثم تقف لتنظر نحوَها، ترى وجهها الصغير هادئًا وعينَيها مُغمضة تبدو كالنائمة، لكن حركة كفِّها الصغير وهو مُتشبّث بملابس أمّها كانت تخبرها أنها مُستيقظة، وربما تشعر أن حدثًا غريبًا وجديدًا عليهما معا سيحدث.

تمشي في طريقها، ورغم مرور ستة أشهُرٍ على ولادتها لطفلتها، لا تزال تشعُر بجرحِ القيصرية يقسِمها لنصفَين، ومعه ألَم في وسط ظهرها أرجعَتْه لحقنة البنج النصفي التي أعطاها لها طبيب التخدير، ثم أخبرها ضاحكًا أنه غرسها عميقًا بسبب امتلاء جسدها.

لم تكن في وضعٍ يسمح لها أن تُفكر أنها دعابة سخيفة، كانت الحماسة والقلق قد ملآ روحها، ولم يعُد هناك مكان لإحساسٍ آخر.

كانت تلك هي المرة الثانية التي تخرج بها وحدَهما، دون أن يَصحبها زوجُها، لم يشترِ لها عربة أطفالٍ لأنه رأى أنهما لن يحتاجا لها، فمن يخرج بطفلٍ في هذه السن، ويتعرَّض لفوضى وتوتُّر العناية به في مكانٍ عام أو في زيارة لأصدقاء أو أقارب.

هي لم يكن لدَيها سوى صديقتَين، إحداهما جارة قديمة منذُ كانت تعيش مع أمِّها، والأخرى معها في العمل.

ولم يكن لديها أقارب، فبعد موت أمِّها منذ عشر سنوات لم يسأل عليها أحد، وهي لم تعرف أحدًا مُقربًا ينتمي لفئة الأقارب تلك.

مات والدُها قبل ولادتها في حادثة عمل، ترك أمَّها شابةً صغيرة حاملًا في شهرها الخامس، عاشا معًا كل حياتهما في بيتٍ صغير لكنه هادئ ونظيف، تعلَّمت أمها تطريز الملاءات والمفارش، وتعاملت مع مصنعٍ صغير كان يُعطيها قِطع القماش، ثم يتسلَّمها منها ويمنحها مبلغًا معقولًا نظير عمله. فيما بعدُ توسَّعت قليلًا في ذلك العمل واستخدمت حجرةً في البيت الصغير الذي عاشت فيه مع ابنتِها لتحويلِها لمشغلٍ، واستعانت بثلاث فتيات، كان العمل رائجًا واستطاعت أن تدَّخر مبلغًا لتؤمِّن مستقبل ابنتها، واشترت لها شقةً جميلة، لتضمَن لها

مكانًا يُؤيها بعدَ وفاتها لأنَّ البيت الذي يعيشان فيه بالإيجار، وقد يُطالبها به ورثة صاحب العقار بعد وفاتها.

تعلَّمَت ابنتها وتخرَّجت في كلية التجارة، وعملت في شئون العاملين في مصنع لحوم مُصنَّعة يُنتج السوسيس واللانشون. وعندما أكملت عامها الثالث والعشرين، أُصيبت أمُّها بالسرطان، قدَّمَت على إجازةٍ من عملها، وقضت معها شهرًا ونصفًا في المَشفى وفي ليلتِها قبل الأخيرة أفاقت من غيبوبةٍ سكنَتْها معظم الوقت، تشبَّثَت بيد ابنتها وقالت لها إنها ترغب أن تموت في بيتِها على فراشها، وبالفعل غادرا المَشفى وقضت يومًا واحدًا في البيت ثم ماتت.

***

مرَّت أيامٌ قاسية وصعبة على "ليلى"، تركت تجربة الفقد تلك مرارةً في حلقها، ونظرةَ حزنٍ لا تذهب من عينيها أبدًا، حتى إنها طيلة ثماني سنواتٍ بعد حادثة الوفاة لم تدخل مَشفًى. وعندما أجرت أمُّ جارتها المُقربة تلك جراحةً خطيرة، واضطرَّت للذهاب لزيارتها، كانت ترتجِف على باب الاستقبال ولم تستطعْ أن تَعبُر البوابة، وقفت تبكي ثمَّ تركت الشوكولاتة والورد مع رجل الأمن ومعهم رقم الغرفة، وغادرت وهي ترتعِش وغارقة في دموعها ...

ذكَّرتها الليلة الباردة، التي قضتْها بالمشفى عقب ولادة صغيرتها، بأيام الفقد والصقيع تلك، كانت مُرتبكة بفعل ألَم الولادة وسعادتها بالصغيرة التي تُشبِه نِتَف سحابٍ على شكل أرنبٍ صغير في سماءٍ صافية وجميلة، صغيرة نائمة، مُنمنمة الملامح لها وجه مُستدير وشفاهٌ تُشبه شفاه أمّها تلك التي طالَما أغرقَتْها بالقُبلات والضحكات الصافية، ترتدي السالوبت الأحمر الصغير والذي اشترَتْه من محلٍّ قُرب عملها قبل أيام. مُرتبكة بسبب ذلك كلِّه وبين ذكرى والدتِها التي تحلُّ بعد يومَين.

حملَها زوجها وقرَّبها منها، وقال إنها تُشبهُهُ كثيرًا عندما كان صغيرًا، علقت أن ملامحها صغيرة جدًّا ولم تتبيَّن بعد، لكنَّ أمَّهُ التي حضرت ومعها أخوه الأكبر أكدت على كلامه، ولم تُخفِ امتعاضها من كون الصغيرة فتاة، ربَّتَت على كَتِف ابنها قبل مُغادرتها وقالت بأسًى حقيقيٍّ أنها تعرف أن ابنها يُفضل الأولاد، وكان يتمنَّى أن تُنجب زوجته ولدًا ثم دعت له أنْ يرزُقَه الله بالولد قريبًا.

غادر الجميع، وكان عليها أن تبيت ليلتها في حجرة المشفى، بقِيَت معها صديقةُ العمل تلك، وعندما ناولتها الممرضةُ الصغيرةَ لتُرضِعها شعرت بدفءٍ وهالةٍ من المحبة تشعُّ منها ولها، حتى إنها شعرت أن أمَّها تُطوِّقها من الخلْف كما كانت تفعل دائمًا وهمست لها بالمباركة على الطفلة.

كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أرضعَتْها فيها لبنًا طبيعيًّا، لأن اللبن جفَّ بعد تلك الليلة من ثدْيَيها، وباءت مُحاولات الطبيبة سواء بتمارين الرضاعة أو جهاز الشفط أو حتى الأدوية أن تجعلَها تمنح صغيرتها ثدْيَها مرةً أخرى.

عندما عادت الصغيرة لحجرة الأطفال، ونامت مُرافقتها، وهدأت الأصوات في الخارج، لم تستطع النومَ من الألَم، ومن تلك البرودة الغامضة والمُرعبة التي تتسرَّب للروح في ليالي المَبيت في المُستشفيات، كانت ليلةً شتوية، وكان صوت الهواء في الخارج صاخبًا، ربما أمطرت أيضًا في وقتٍ مُتأخِّر من الليل.

صقيع ووحشة كتلك التي غلَّفَت كل ليالي مَبيتِها هي وأمها في غرفة المشفى، أيامها الكابوسية تلك، تذكَّرت هرولتها في الطرقات شِبه المُعتمة معظم الليل بحثًا عن ممرضةٍ أو مساعد؛ أي أحدٍ يمنحهم جرعة مُسكِّن أخرى، تلك التي تئنُّ أمها لطلَبها، تبحث عن أحدٍ يساعدها لتسند الجسد المُنهك للذهاب للحمَّام، أو حتى لتُغير وضعَها في الفراش، كانت تكره ضعفَها وخيانةَ جسدِها هي الأخرى لها، عدم قُدرتها على حمْل أمها التي طالَما حملتْها وهي صغيرة، كان بريق الحياة يتسرَّب منها، بينما تقف عاجزة.

كثيرًا ما استرجعَتْ تلك الذكريات بعد مَوت أمها، تُعيد ترتيب المواقف في عقلها، تبدو أكثر قوةً في التعامُل مع المرَض، تستطيع في إعادتها لتلك المشاهد أن تسند أمَّها حتى الحمَّام دون أن تقع على الأرض، وتستطيع أن تلفَّها بيدِها يمينًا وشمالًا دون أن تنتظِر مساعدةً لا تجيء حتى تجد الوضع المناسِب لراحتها في الفراش في خيالاتها، حتى إنها تجد لها دواءً يمنحها بعض السكينة ويُمكِّنها من النوم ساعاتٍ هانيةً دون أنينٍ أو صرخات، وحينما يشتدُّ بها الحزن والوحدة، تفكر أن أمَّها قد شُفِيَت من المرض وعاشت معها واعتنت كلٌّ منهما بالأخرى، ثم تعود لتُواجِهَ الفقد والوحدة.

ذكريات كثيرة سوداء ومُقبِّضة، لكنها فجأة ابتسمت، وحلَّ في قلبها سكينة، فاجأتْها تلك الذكرى حين سمعت أمَّها تهدهد طفلًا، كانت مغمضة العينين منذ أيامٍ لم تفتح عينَيها أو تتحدَّث، تتغذَّى على المحاليل.

بينما جلست هي جوارَها، تُفكر أنها لو فاقت قليلًا وتحدَّثَت معها وأنها لا تحتمل هذا الصمت والغياب، اشتاقت لحديثهما معًا ، وفجأة حرَّكَت أمُّها يدَها وكأنها تحمل شيئًا في لفافةٍ وهدهدتْهُ وقالت بصوتٍ خافت شوشوشوش هوه هوه هوه.

نهضت على الفور والتصقت بفمِ أمّها وسألتْها إذا ما كانت تشعر بشيءٍ يؤلِمُها أو تريد شيئًا، سألتها وهي لا تعرف هل تسمعها، أو هل يُمكنها أن تردَّ على سؤالها، لكن الأم همست: شوششوووش هوووهو، وقالت إنها تُهدهد طفلةَ ابنتها ليلى، ثم عادت لصمتِها وغيبوبتها.

أعادت تلك الذكرى بوضوحٍ في ذهنها، فكَّرت أنَّ أمَّها وبطريقةٍ ما قابلت الصغيرة، وحملتْها، بل إنها غنَّت لها وهدهدتها ... ربَّت ذلك الشعور على روحها المكسورة، ورتق إحساسها باليُتم.

ونامت ما تبقى من الليلة صافية وسعيدة.

استمرَّت في المُضي عبر الشارع الذي بدا لها طويلًا وبلا نهاية، كانت الساعة قد قاربت الثامنة صباحًا، ومع ذلك كانت الشمس ساطعة والجوُّ حارًّا وخانقًا، كانت تتصبَّب عرقًا، وتململتِ الصغيرة في وضعِها، توقَّفت عن المشي ونظرت نحوَها، حيث كانت مفتوحةَ العينَين وتضحك، غيَّرت من وضعِها بحيث حملتْها بين يدَيها وأصبحت كلٌّ منهما ترى وجه الأخرى، وأكملت سيرها.

أخبرت الصغيرة أنها معها، وستكون دائما كذلك ... قالت سنكون أصدقاء كما كنتُ أنا وأمي.

***

فكرت وهي تُواصِل سيرَها أن عليها أن تشتريَ عجلةً للصغيرة، ستُخبِر زوجَها أنها جاءتها هديةٌ من زميلات العمل حتى تستقرَّ فيها الصغيرة وتبدو مرتاحةً أكثر أثناء سيرهما في الشارع ، كما إنها تمنَّت كثيرًا أن يكون لدَيها طفل تدفعه في تلك العربة؛ اعتقدت أن الأمر يبدو أنيقًا ويُمكِّن الجميعَ من رؤية أنها أمٌّ لصغير جميل. فكرت أيضًا أنَّ عليها أن تصنع إطارًا جديدًا

لصورةٍ تجمعها هي وأمها، صورتها وهي طفلة وأمُّها شابة غاية في الجمال تُمسك كلٌّ منهما يدَ الأخرى وينظران بثقةٍ وسعادةٍ نحو الكاميرا، فكرت أنه عندما تُكمِل الصغيرة ثلاثة أعوامٍ ستأخُذها للتصوير وستتَّخذ كلٌّ منهما نفس الوضعية، فكرت حتى أنها ستُعلِّق الصورتَين متجاورتَين.

ساد الحزن عليها عندما وصل تفكيرُها لذلك، لأن زوجها سبق وأزال الصورة من على الحائط مرتَين، مرةً أخبرَها أن وضْع الصور على الحائط أمرٌ غير مُستحَب لدَيه، وأنها يُمكنها أن تحتفظ بها في خِزانتها، لكنها نقلتْها فقط من حائط الصالة، لمنضدةٍ صغيرة في حجرة النوم، الأمر الذي أغضبه، حتى أنها سقطت من يدِه بدون قصدٍ كما قال لها وتهشَّم إطارها الخشبي. ومن ذلك الوقت وهي في دُرج ملابسها الداخلية ملفوفة بقطعةٍ من القماش.

هدأت لحظة عن التفكير ثم قالت لنفسِها إنها يومًا ما ستصنع إطارًا لها وتضع الصورتَين جوار بعضهما، صورتها مع أمِّها وصورة لها مع الصغيرة.

ليس لها صورة واحدة على حائط البيت، حتى إن صورة زفافها لم تبقَ سوى أسبوعٍ على الحائط، ثم حملَها زوجها من مكانها بينما كان يتشاجَر معها، لأنها سمِعَت صوت مفتاحِه يلِجُ في الباب وكانت تعلم بمجيئه، لكنها لم تظهَر عند باب الشقَّة لاستقباله ومُلاقاته، كما تفعل أي زوجةٍ وفيَّة مُحبة لزوجها، الذي عاد من جلسته على المقهى القريب واشترى لها خبزًا للعشاء وهو الأمر الذي لن يفعلَه مرةً أخرى لأنها لم تُقدِّر مَعروفه، كانت في المطبخ تُعِد العشاء عندما دخل غاضبًا، تشاجر معها ثم حمل صورة الفرح من على الحائط وذهب ناحية سلَّةِ القمامة وظلَّ يَدقُّها حتى تكسر الإطار الزجاجي، فأخرج الصورة ومزَّقَها ورماها في القمامة وبصق فوقها وغادر المطبخ.

***

هدأ بعد قليل، فهو طيب القلب كما تقول عنه أمه، هادئ الطباع كما يقول عنه أخوه، داعبها وطلب منها أن تبتسم في وجهه حتى لا يغضب مرةً أخرى بسبب أفعالها، حرَّكت شفتَيها بما يشبه الابتسامة لكنها لم تُرضِه فدخل في وصلة شجارٍ أخرى لأنه لا يُصدق كيف تزوج من امرأة جاحدة مثلها رغم خطئها في حق زوجها. يبادر هو في مُصالحتها ولا يجد منها سوى النكران، احتاجت هي لعامٍ حتى اعتادت أن تبتسم فور أن يطلُب منها ذلك؛ تبتسم

ابتسامةً تبدو عادية وراضية ومتفهمة، عقب مشاجراته الحامية التي تحدث بسببٍ سخيف أو تحدث دون سبب، يَجيء بعد عشر دقائق أكثر أو أقل، هادئًا ومعتذرًا وطالبًا منها أن تبتسم في وجهه لتنال رضا الله، وحتى لا يغضب عليها زوجها، يطلُب منها أن تكون متفهمةً وأن تتوقف عن النكد الذي يرى أنها بارعة جدًّا فيه.

شعرت بدموعٍ تسيل على وجنتها فتوقَّفَت مرةً أخرى ومسحت بشالِ الصغيرةِ وجهها، وجاهدتْ أن تبتسِم في وجهها الصغير الجميل، أخفَتْها في حضنها، وضعتْ قبلةً على رأسها وأكملت الطريق.

لكنها تحدثتْ بصوتٍ مرتفع قليلًا موجّهةً كلامها للصغيرة، طلبت منها ألا تخشى شيئًا ووعدتها أنها ستحميها ولن يستطيع أحد أن يقوم بإيذائها.

فكرت لحظة في أنها ليست ضعيفة، وأنها تربَّت على يد سيدة قوية ... لكنها فقط تريد أن تحافظ على البيت، حرصت منذ اليوم الأول ألا ينهار زواجها لأي سبب، بعدما بقِيَت بمفردها سبعة أعوام بعد وفاة أمها، أكلت الوحدة رُوحها.

لكنها الآن سيدة بيت ولدَيها رجل تطهو له، تنتظِر عودته، تنام جواره، تسمع أنفاسَهُ فلا يُشوِّش عقلها الصمتُ المقبض.. قالت لصديقتها إن كلَّ شيءٍ في الزواج جميل ما عدا زوجي.

لكنها مع ذلك تأقلمت على الحياة معه، صارت تُردِّد مقوله أُمِّه أنه طيب القلب، ورأْيَ أخيه أنه هادئ الطباع، تقولها لنفسها حتى تُهوِّن عليها الحياة.

كانت قد حصلت على إجازة الوضع من عملها وفوقها ثلاثة أشهُر أخرى إجازة دون مرتب، وعندما سئمت من شجار زوجها وعصبيَّته ولم تعُد أعصابها تحتمل ذلك الجحيم، وصار ترديدها لعبارة أُمِّه وأخيه مبتذلًا ومضحكًا أكثر من اللازم، كما أوشكت مُدخراتها التي استقطعتها من أموال عملها طوال العام الماضي لتستعِدَّ لمصروفات ولادة الطفلة وشراء أشيائها على النفاد، خصوصًا أنها استنفدت معظم الأموال التي تركتها لها أُمُّها في تجهيزات ومصروفات الزواج ... فكرت في عدم تجديد الإجازة والعودة للعمل. خصوصًا أنَّ زوجها رفض أن يتكفَّل هو بثمن عُلَب اللبن الصناعي الغالية، قائلًا إن مسئوليتها هي إطعام الرضيعة في هذه السن وأنه لن يتحمل خطأها وليس له ذنب أنها لا تستطيع إرضاعها.

في البداية رفض زوجها فكرة عودتها للعمل مبكرًا هكذا، وتحجج أن الطفلة صغيرة، لكن عندما عرضت هي أن تُسدِّد نفقات الحضانة للطفلة اثناء تواجدها في العمل تظاهر لحظة بالتفكير، ثم أضاف شرطًا؛ أن تتولَّى هي مسئولية توصيلها واستلامها كل يوم، وأنه لن يتدخل في ذلك أولًا لأنها ليست مسئوليته وثانيًا لأنه غير موافق على عودتها للعمل.

كانت تعرف أنه يتحرَّق شوقًا لعودتها للعمل، لأن راتِبَها يساعد في المصروفات، ويعتمد عليه في بعض المصاريف الثابتة وسداد الفواتير الشهرية، كان راتبها أكبر من راتبه مرَّتَين، هي في النهاية خريجة جامعة، بينما حصل هو على تعليم متوسط، ودبَّر له أخوه الأكبر وظيفةً مكتبية في عمل حكومي، واكتفى هو بتلك الوظيفة التي تنتهي في الرابعة، يعود في الخامسة للبيت.

أخوه الأكبر زميلُها في العمل، والذي تحدث مع رئيسها ليتوسَّط له عندها، لتُقابِل أخاه الصغير ويتعرَّفا، ذهب لرئيسها وكان بمثابة أبٍ لها وعلى علاقة طيبة بها بسبب طيبتها وأخلاقها ومهارتها في العمل، وأخبره أنها وحيدة وأوشكت على نهاية الثلاثينيات، ويجب أن يفعلوا الخير ويساعدوا في تزويجها وأنه يرى أنَّ أخاه مُناسبٌ لها تمامًا، فهو طيب القلب، هادئ الطباع ... صحيح أنه ليس جامعي لكنه يعمل في وظيفةٍ حكومية محترمة، لا تقلُّ عن وظيفتها، صحيح أنه لا يملك شقةً لكن يعرف أن "ليلى" لدَيها شقة تركتها لها والدتها، وهكذا تدخَّل رئيس ليلى في العمل وحضر مُقابلتهما الأولى في كافتيريا الشركة في وقت الراحة. بعد يومَين أخبرت ليلى رئيسها بموافقتها على العريس، وتم الزفاف سريعًا في أقلَّ من شهرَين، تكفلت فيهم ليلى بمعظم المصاريف، لأن أخاه قال وهو يبتسِم بسماجةٍ إن المليان يصبُّ على الفارغ، ويقصد بالفارغ العريس كما تعرف ليلى. العريس الذي يقول عنه أخوه إنه هادئ الطباع.

والذي يعمل في وظيفةٍ تنتهي بعد العصر بقليل، يُغادرها عائدًا للبيت — بيت ليلى — وما إن يدخل حتى يُغلق الباب بالمزلاج من الداخل.

كانت تلك الحركة رغم عادِيَّتها، تُشعِرها بانقباض قلبها.

تشعر أنها رهينة، حبيسة في مكانٍ معزول، وليس هناك أحد في هذا العالم سواها هي وسجَّانها الذي ينهي تناول الغداء ويمسك بريموت التليفزيون ويدوِّر في قنواته حتى يغلِبه

النوم على جلسته تلك، كان يبقى في البيت كل ساعات الليل ربما يومًا واحدًا يذهب للمقهى القريب أو يزور والدته، غير ذلك يبقى المزلاج مغلقًا وكئيبًا .

تغيرت الأمور عندما أنجبت الصغيرة، أصبحتا رهينتان، مما خفَّف عنها كثيرًا.

اليوم هو الأول الذي تعود فيه لعملها، بعدما استعدَّ زوجها وذهب لعمله، جهزت الصغيرة وأحضرت الحقيبة التي على شكل دبٍّ برتقالي، والتي اشترتْها في تجهيزات ما قبل الولادة، وضعت لها علبة اللبن الصناعي وترمس الماء الساخن وببرونة معقمة وغيارًا وحفاضات، ارتدت ملابسها وحملَتْها ومضت في اتجاه الحضانة التي تقع في نهاية الشارع الطويل الذي تسكنه مع زوجها.

تحتضن الطفلة، وتشعرُ بألمٍ شديد أسفل بطنها، ووخزٍ في منتصف ضهرها، تتصبَّب عرقًا، وتُقلِّد ما يُشبه ابتسامة الرضا وتقول إن زوجها طيب القلب كما تقول أمُّه، هادئ الطباع كما يقول أخوه، تُردِّد ذلك وتمضي بطفلتها نحو نهاية الشارع.

الرجل الذي أحب السلطة الخضراء

أنهت عايدة الجدل الدائر في عائلتها حول زيجتها، بأن قالت للجميع وبلا ذرة خجل "إنها أخذت زوج ماجدة، صحيح أنها كانت صديقتها المُقربة لكنها كانت بنت كلب".

كانت "عايدة" سيئة الحظ ومغرمة بالتفاصيل.

يمكنها أن تحكي لك عن موقفٍ واحد صغير لا يتعدى الخمس دقائق في ساعات، لن تغفل شيئًا، ستقص عليك الحكاية بكل ما يُحيط بها، فإذا أخبرتك أنها ذهبت لشارع السوق .. فستحتاج على الأقل لعشرات الكلمات، لأنها ستبدأ من الساعة التي استعدَّت فيها للذهاب، وحالتها النفسية وقتها، الفستان الذي ارتدته، نوع قماشه من أين اشترته، مَن صادفت في الشارع، سعر الطماطم عند البائع الذي مرَّت عليه الذي يقف ببضاعته في مدخل شارعها، نبذة غير مختصرة عن تاريخ البائع الذي ورث العربة عن أمِّه التي طلَّقها أبوه. عندما تصل بك لشارع السوق والسبب في ذهابها، سيكون الدم قد تجمَّد في عروقك وانهارت نسبة الجلوكوز في دمك.

كيف ينجو أصدقاؤها ومعارفها من كل هذا الحكي، كيف يمكن لها أن تُغرق العالم في تفاصيل فارغة لا تهم أحدًا، وقد يقع أحدهم في طريقها يومَين متتاليَين فيسمع الحكايات نفسها ولا يستطيع أن يهرب أو يلفت نظرها أنها حكت له كل ذلك من قبل، لأنك ما إن تُحاول فعل ذلك حتى تصمت ثانية، وتقول لك جملتها الشهيرة، التي لا تمتُّ لما تقول بصِلةٍ لكنها تعتبرها مخرجًا من مأزق احتمالية أن يُحاصرها أحدهم لتصمت، ستنظر لك وتقول "لأ مش النظرية" ثم تبدأ من جديد لتشرح لك نظريتها أو وجهة نظرها.

تزوَّجت "عايدة" صغيرة كما جرت العادة وقتها، كانت البنت الرابعة في ترتيب إخوتها، تزوجت صديق أخيها الأكبر، لم يكن يُعجبها كثيرًا، لكن دورها في الزواج قد جاء، ولم يتقدَّم لها غيره، هي السمراء المجعدة الشعر، السليطة اللسان، السيئة الحظ كما تقول عن نفسها، تزوجته لأنها لا يمكن أن تُعاني من خِزي الوصول لعمر العشرين دون زواج. كانت قد أنهت تعليمها التجاري وتعمل في سويتش مصلحة حكومية خدمية.

العريس كان يكبُرها بست سنوات، رجل عادي، يرتدي نظارةً طبيَّة سميكة ويحب القراءة، يعمل موظفًا في أحد المتاجر الشهيرة التي تبيع كل شيء، ملابس وأقمشة وأدوات منزلية وأجهزة كهربائية وأثاثًا، وكان يعمل في قسم الأدوات الكهربائية.

أسَّس بيتا صغيرًا، ومضت الحياة في البيت شِبه صامتة، الزوج يكتفي طوال اليوم من الحديث مع الزبائن ومحاولة إقناعهم بالبضاعة والحديث عن العروض وغيرها، يعود للبيت ويضع رأسه في صحن الطعام كما تقول عنه عايدة يأكل ويدخل لحجرة النوم ليأخذ قيلولته. في الشهور الأولى من الزواج كانت عايدة تدخل معه للنوم في ذلك الوقت، تحاول أن تتجاذب معه أطراف الحديث، تمارس شيئًا من الدلال، لكنه كان يتجاهل كل ذلك وينام، حتى أخبرها ذات مرةٍ صراحة أنه لا يفضل فعل أي شيءٍ في الفراش بعد الغداء؛ لأنه وقت راحته، وأن الأمور الأخرى التي تقصدها تحدث ليلة الخميس.

ليلة الخميس التي يقضيها في بيت أمِّه، ثم يُقابل أخاها صديقه ومعهم صديق ثالث ويعود لها قرب منتصف الليل مُنهكًا، وراغبًا في النوم.

بينما يفيق من قيلولته كل يوم بعد المغرب بساعة، يصنع كوبًا كبيرًا من الشاي بخمس ملاعق سكر، يأخذه ويعود للفوتيه الذي أصرَّ على شرائه ووضعه في حجرة النوم الضيقة؛ لم تكن عايدة تعرف أن هذا المقعد سيكون شريكها في زوجها حيث يقضي فوقه كل المساءات ممسكًا بكتابٍ يقرأ فيه. مئات الكتب أنها ها الزوج في عشرين عامًا هي عمر زواجهما. الفوتيه الذي اهترأ، والكتب التي تكدَّست في كراتين كثيره تحت السرير وفوق الدولاب وفي المخزن الصغير الذي كان له بلكونة تطلُّ على الشارع، واستخدم المزيد من الألواح الخشبية ليُحولها لمخزنٍ صغير لكُتبه وأشيائه.

اعتادت عايدة في السنة الثانية من الزواج أن تُجهز له الغداء في المطبخ قبل ذهابها للعمل، وعندما تخرج من العمل تذهب كل يوم لبيت صديقةٍ أو جارة تقضي اليوم لدَيها وتعود في المساء؛ الأمر الذي لم يمانع زوجها فيه، لكنه كان يكتفي كل ليلة بسؤالها عن اسم الصديقة التي زارتها فقط دون دخول في تفاصيل ..

كانت كثيرًا ما تقضي الوقت في بيوت إخوتها، كانت تتسبَّب في كثير من المشاكل بسبب تدخُّلها في أمورهم أو تعليقاتها غير المناسبة ..

كان يُغضبها تدليل إخوتها لزوجاتهم، تراهم عارًا على جنس الرجال، جميعهم يساعدون في أعمال البيت، ويشترون الذهب والملابس الغالية والعطور، كلما ذهبت لبيت أحدهم شعرت بالقرف والاشمئزاز، تفكر كيف استطاعت كل امرأةٍ منهن أن تضحك على عقل إخوتها.

هؤلاء التي لم تر منهم في بيت أبيها غير كل جفاء، صحيح أنهم ساهموا في جهازها ولم تدفع هي شيئًا مما ادَّخرته طوال فترة عملها، قالت لهم إنها يتيمة الأب ومسئولة منهم، ورغم صعوبة ظروف بعضهم وقتها فإنهم اشتروا لها كل ما احتاجت.

وصحيح أيضًا أن أحدًا منهم لم يتعرض لها من قبل بأي إهانة أو إساءة، لكنهم لم يكونوا مُقربين لها، جميعهم على علاقة جيدة ببعضهم إلا هي، يحكون لبعضهم الأسرار والحكايات وهي لا يتقرَّب منها أحد.

يتهمونها طوال الوقت بأمورٍ مضللة وكاذبة، تقول أختها إنها تسببت في فسخ خطبتها لأنها شاغلت عريسها من خلف ظهورهم، وهذا افتراء، هي لم تقصد أن ترتمي في حضنه عند باب الشقة وإنما الْتوَت قدمها وكادت تسقط فتشبثت به، كما أنها لم تقصد أن تُحدث وقيعة بين أخيها الأصغر وزوجته، وإنما كانت تحكي بحُسن نية عن جارتهم التي أحبَّها في السابق قبل زواجه منها.

مهما فعلت لا يشكرها أحد، حتى عندما ماتت زوجة أخيها الكبير بعد إصابتها بالفشل الكلوي، ذهبت لبيته وقدَّمت العزاء، هي التي لم تكن تُحب زوجته لأنها متكبرة ومغرورة حتى إنها لم تزُرها طوال فترة مرضها التي استمرت لعامَين ونصفًا، لكنها الآن ماتت وعليها أن تقوم بواجبها تجاه أخيها وابنتَيه، ربما حتى تنقل جزءًا من ملابسها هي وبنتها، وتبقى معهم عدة أشهر أو عامًا حتى يعتادوا على البيت دون أمِّهم. رتبت لكل ذلك وأحضرت في اليوم الثالث للعزاء ملابسها وملابس ابنتها وزجَّت بنفسها وابنتها في حجرة البنات، وضعت ملابسهم في رفٍّ داخل الدولاب وكدَّست البنتَين في فراشٍ واحد، بينما نامت هي وابنتها في الفراش الآخر.

في الأيام التي تلت ذلك، بدَّلت الكثير من وضع البيت، وأعادت تشغيل التلفاز مما أحزن البنت الكبرى وكانت في الخامسة عشرة من عمرها، تلهَّى أخاها عن تصرفاتها بالحزن الكبير

في قلبه، ورأى أنها طريقتها في مواساته، لكن عندما عاد من عمله ووجد ابنتَيه تبكيان في حجرة نوم أمهما، وعندما عرف أن السبب هو العمة التي لملمت ملابس أُمِّهما ووضعتها في أكياسٍ بلاستيكية استعدادًا للتخلص منها، غضب كثيرًا وأصابته نوبة هلع، وطلب من أخته مغادرة بيته.

وكانت تلك قطيعة "عايدة" الكبرى به وبإخوته الذكور الآخرين، لأن أحدًا منهم لم يقف جوارها، ولأنه كما قالت هي "خير تعمل شر تلقى".

كلهم قساة القلوب، لا يستحقون قُربها، ربما تزور أخواتها البنات أحيانًا، لكن مقابلتهنَّ لا تُعجبها، اشتكت إحداهن بأنها تقضي اليوم بالكامل عندها، وتُعيقها عن مسئوليات بيتها وزوجها . بينما طلب زوج أخرى منها أن تزورهم في أيام العطلات ، لأنه يحتاج للهدوء والراحة، خاصةً بعدما أنجبت ابنتها الصغيرة وصارت تأخذها معها في كل مكانٍ بعد مواعيد الحضانة، وربما تتركها عند إحدى أخواتها أو معارفها بالساعات، لتذهب لزيارةٍ في بيتٍ آخر بعيدًا عن ضوضاء الصغيرة.

طالما عانت عايدة من سوء الحظ، وتَنكُّر الجميع لها، وعدم ترحابهم بزيارتها. وحدها صديقتها "ماجدة" صديقة طفولتها وشريكتها في مقاعد الدراسة التي ظلت وفيةً ومُحبَّة لها هي وابنتها؛ ماجدة البيضاء الممتلئة يتيمة الأب والأم التي تربَّت لدى خالها، وتعلَّمت حتى الإعدادية ثم بقِيَت في البيت لتساعد زوجة خالها، الذي كان يعمل في ورشٍ لتصنيع الفضة والحلي، عن طريق خالها تزوَّجت "ماجدة" شابًّا طيبًا صاحب محل لبيع الفضة ولديه شقة كبيرة أربع غرف وصالة واسعة وشرفة بطول الدور تزرعها "ماجدة" بالفل والياسمين، في وسط البلد بالقُرب من معرضه، تزورها فيها دومًا "عايدة" وابنتها، وكثيرًا ما قضين الليالي والسهرات هناك.

وحدها "ماجدة " وسيدة عجوز شِبه كفيفة تُقيم في الدور الأرضي في بيتهم القديم، مَن رحَّب بها دائمًا، وحدَها احتملت ساعات غيابها، بينما تبقى البنت لديها، تُقدم لها الطعام وتتركها تلهو في حجرة النوم، وتكتب واجبات المدرسة، ثم تذاكر دروس الجامعة وتسمع الأغاني الشبابية وهي تقف في شرفة السيدة العجوز، تقول عايدة إنها طالما اعتبرتها بمثابة الأم لها، وأنها حقيقة من ساعدها في تربية ابنتها.

ظلت تنادي السيدة العجوز بـ "ماما" وتقول لها ابنتها يا "جدتي"، لكن كل ذلك تغير، توقفت عن الحديث عنها تمامًا بعد وفاتها، وإن اضطرت لفتح سيرتها فإنها تُسميها السيدة اللئيمة البخيلة التي لم تترك لها بعد وفاتها شيئًا في وصيَّتها ولا حتى قطعة ذهب أو متر قماش من دولابها المُمتلئ عن آخِره بحاجيات ابنتها التي تُوفِّيت صغيرة، ولم تستخدم شيئًا من شوارها ذلك، المخبولة تركت كل شيءٍ لابنة أختها الوحيدة التي تعيش مع زوجها في مدينة أخرى وتزورها مرةً واحدة كل عام.

بينما هي التي كانت تؤنِس وحدتها، وتسأل عنها هي والبنت لم تترك لهما مليمًا.

البنت التي أخذت طباع أمِّها، فكانت شحيحة في تقدير من حولها، لا تُحب أحدًا من عائلتها، حتى إنها إذا ما صادفت أحد أخوالها في الشارع تتظاهر بعدم رؤيتهم وتمرُّ من جوارهم سريعًا.

لم تُحب الأب أيضًا، ورأته دائما خيال مآته لا يستحق أي تقدير.

ولم تُكنَّ لأمها أيضًا حبًّا خالصًا، وإنما كانت تراها وسيلتها للنجاة، كي تكبر وتتعلم وتشتري كل ما تحتاج، لكنها تراها أمًّا سيئة الطبع والسيرة، طالما سمعتها تتحدث في الهاتف مع رجالٍ آخرين، أو تمارس غنجًا غير لائقٍ مع صاحب العقار الذي يُقيمون فيه، وفي زياراتها القليلة لها في العمل ترى كيف تُعامل زملاءها الرجال بتساهُلٍ ودون تحفُّظ.

كثيرًا ما رددت بينها وبين نفسها أن أمَّها مجرد عاهرة رخيصة، تلك الصفة التي ستنعتها بها بصوتٍ مسموع في ذلك اليوم الأخير الذي غادر فيه الأب البيت ولم يرجع.

شيءٌ غامض حرَّك المياه الراكدة بينها وبين زوجها، فصارا يتشاجران كثيرًا، تُنغِّص عليه الحياة أكثر، تُطالبه بالاهتمام وفعل أمورٍ مشتركة لأنها لم تعُد تحتمِل الحياة بهذه الطريقة أكثر من ذلك، كانت البنت قد أنهت دراستها بكلية الخدمة الاجتماعية، وتعيَّنت أخصائية مساعدة نفسية في مدرسة فتيات.

***

وفي الأسبوع قبل اليوم الأخير، اختفت البنت من البيت. في اليوم الأول سأل عنها الأب في المستشفيات وأقسام الشرطة وفي اليوم التالي ذهب للمدرسة وعرف أنها حصلت على شهر

إجازة، وفي اليوم الثالث جاء لبيتهم زوج ماجدة الذي أخبرهم أن البنت هاتفته وأخبرته أنها تزوجت من زميل دراسةٍ لها، ولا تنوي العودة للبيت.

كانت الصدمة شديدة على الأب، ولملمت عايدة ملابسها وذهبت لقضاء يومَين في بيت ماجدة حتى تهدأ وتفكر، كانت معتادة على المبيت في بيت صديقتها كلما شعرت بالملل الشديد، أو تأزَّمت الأمور بينها وبين زوجها، كانت تساعد في المطبخ وتصنع السلطة، تضع يدها كلها فيها وتفركها بالملح والليمون والكمون والخل، تفرك محتوياتها لتتخلل الخلطة في كل قطعة من الخضار. كثيرًا ما كانت ماجدة تطلب منها أن تستخدم الملعقة في التقليب لكنها كانت تُخبرها أن فرك محتويات السلطة باليد أفضل كثيرًا، وكان زوج ماجدة يؤمِّن على كلامها، ويقول بينه وبين نفسه إن فرك السلطة باليد مُثير ومُغوٍ. بقِيَت لديهم حتى نهاية الأسبوع، وعندما هاتفت البنت زوج صديقة أمِّها مرةً أخرى ليرتِّب لها مقابلةً مع أمِّها اصطحَبَها بالفعل، وكان رجلًا خدومًا وصديقًا لها بحكم صداقتها القديمة والقوية بزوجته وأم أولاده الثلاثة.

هو الذي ورث محل الفضة من والده هو وأخته، لكنه بعد سنواتٍ من العمل الشاق، اشترى نصيب أخته، واشترى شقة أحلامه. وبينما كان في إحدى زياراته لورشة الحلي التي يتعامل معها شاهد "ماجدة" تنتظر خالها عند الباب، وكان يعرف الخال وسُمعته الطيبة، عرض عليهما توصيلهما بسيارته، ويومها أعجبته الفتاة وتزوجها، وكان يقول عنها دائمًا إنها هادئة الطباع، ابنة أصول، طيبة وحنونة وقدَم خير عليه وعلى تجارته.

اصطحب الرجل "عايدة" لمقابلة ابنتها في حديقة عامة، لأن البنت رفضت أن يعرف أحد بيت الزوجية، وهناك حدثت مشاجرة كبيرة بينها وبين ابنتها، وهاجمتها البنت وقالت لها إنها عاهرة رخيصة، عادت من المقابلة منهارةً وحزينة وتشعر بالخيانة، ابنتها التي احتملت لأجلها تلك الحياة الصعبة تتنكَّر لها وتُهينها، عادت للبيت فلم تجد زوجها على غير العادة.

لم يعد للمبيت في البيت، عند منتصف الليل هاتفت ماجدة التي أرسلت لها زوجها ليبحث معها عن الزوج المفقود، بعد أربعة أيام وصل لعايدة ورقة طلاقها، غادر الزوج دون كلمة واحدة.

ترك عمله، ولم يعُد للبيت ولم يعرف أيٌّ من معارفه أو أصدقائه شيئًا عنه.

استطاعت "عايدة" ببعض الدلال على المالك والعشم القديم ومبلغٍ من المال منحَه له زوجها الجديد أن تنقل عقد إيجار الشقة باسمها لأنها رفضت أن تتركها وهي التي قضت بها عمرها كله، خاصةً وقد غادر الرجل وابنته فهل تتركها لصاحب البيت؟! شعرت بأن البيت تبدل تمامًا واتسع كثيرًا بعدما أزالت ألواح الخشب من الصالة وتركتها واسعةً وكبيرة وحرة، وأعادت الشرفة لِما كانت عليه، وجمعت حاجيات زوجها السابق وابنتها وتخلصت منها جميعًا، كادت أن تمنحهم لجمعية خيرية لكنها فكرت أنها لو باعتهم لتحصلت على مبلغ يمكن أن ينفعها في تجديد حجرة النوم.

لكن زوجها الجديد، الذي كان زوج ماجدة صديقتها رفض أن تنفق قرشًا واحدًا من أموالها واشترى هو حجرة نوم جديدة واصطحبها لمحل الذهب حيث اشترى لها شبكة عروس، كانا يمارسان الحب في كل مكان في الشقة الصغيرة، كانا يتبادلان النكات والضحك، ولا يتوقفان عن الكلام، تبدأ هي أو هو بأنه "مش دي النظرية" وينتهيان بعد ساعات، يُدللها، ويساعدها في أعمال البيت، ويقف ملتصقًا بها بينما تضع يدَها في طبق السلطة وتفرك محتوياته بيدِها فتتوغل الخلطة جيدًا في قطع الخضار.

حلم الليالي الممطرة

كانت تعرف أنها لم تعُد تفكر فيه، رغم أنه حُب حياتها، جرَّبت معه الفرح واللهو، لكنها احتفظت في قلبه بمكانٍ لا يصل بهما للنهاية المأمولة، وضعتْه في قُمقم صغير ورمتْه في قاع قلبها، كتبت عليه أكثر رجلٍ أحبَّتْه ولم يُحبها.

تزوجت فيما بعد من أكثر رجل أحبته وأحبها لكنه لم يسعدها، ظلَّ بينهما حاجز شفاف يزداد سُمكًا وعتمة مع الأيام.

لم تستسلِم في بداية الأمر، فهي تعرف أنها مقاتلة كبيرة وأن سعادتها تستحق أن تَمنح العلاقة فُرَصًا كثيرة، تحدثت معه أحيانًا ودللته أحيانًا أخرى وتشاجرت وصرخت وفي النهاية استسلمت.

عاشت معه على طرف الجدار، اهتمت به وبتفاصيله، أحبته واعتنت به في مرضه، واقتسمت معه نجاحاته خففت عنه همومه وربَّت له بنتًا وولدًا، لكنها عاشت بإحساس أنها وحيدة، لا يشعر بما في قلبها.. رغم عملهما في المجال نفسه "طب العيون" لكنه لا يراها.

رجلٌ يُحبها لكنه لا يعرف كيف يُسعدها، يقوم بواجباته المنزلية، ويقتسِم معها فراشًا لم يكن دافئًا قط، طالما تسلَّل الصقيع إليه، لكنها تجاهلت البرودة والوحشة وعاشت.

لم يُقلقها في أيام الزواج الأولى سوى ذلك الحلم المُتكرر، تحلم أنها تمشي في شوارع مغسولة برائحة المطر، ترتدي فستانًا منفوشًا وقصيرًا يُشبه ذلك الذي اعتادت بطلات أفلام الأبيض والأسود ارتداءه، تمشي بخفةٍ وسعادة تَشعر بها حتى وهي نائمة، تتسلل لقلبها كأنها حقيقية، تمشي في شوارع لا تنتهي مع الرجل القديم الذي أودعَتْه في القمقم.

لم يتكلَّما قط، ولم تتشابك أياديهما، فقط يمشيان بفرحٍ وخفة.

كانت تنهض من نومِها غاضبةً وحزينة، وخجلةً من نفسها، تشعر بالخيانة.

طالما قاومَت ذلك الحلم، وكافحت حتى لا تراه، لم يكن رجلُ القمقم يجيء على بالها أبدا بالشهور، ويغيب الحلم كذلك حتى تشعر أنها انتصرت، يَسكنها الرِّضا والأمان ثم يُغافلها دون توقُّع ويعاود المشي جوارها في ليالٍ لها رائحة المطر وخفة السعادة.

غاب الحلم عنها قرابة نصف عام، وكانت تشعر بارتياحٍ كبير لذلك، وذات ليلةٍ كان زوجها مريضًا بالحمَّى سهرت جواره، على فراشٍ صغير اعتاد النوم عليه في حجرة مكتبه، ووضعت شراشف الماء البارد على رأسه، وناولته الدواء، شعرت بسبب وهنِه بعطفٍ شديدٍ عليه، وصفاءٍ لم تشعُره منذ زمن، تذكرت أيام لقائهما الأولى، كيف صادفتها في مؤتمرٍ لطبِّ العيون كانت تحضُره في مدينةٍ بعيدة عن بلدها، مدينة مشهورة بالضباب والبرد.

وسط الأبحاث والوجوه العملية الجافَّة، والمصطلحات الأجنبية، سمِعَت صوتًا قويًّا يتحدث العربية، نظرت نحوه وابتسمت، في نفس اللحظة كان ينظر لها وشيءٌ ما حدث، صوتُ ولوج مفتاح معدني في قلبِها الذي ظلَّ مُغلقًا منذ عامَين بعدما افترقت عن رَجُلها الذي أحبَّتْه ولم يُحبها، كان قلبها خاويًا تمامًا إلا من ذلك القمقم، كان مُستقرا في مكانه بهدوء، لا تشعُر بوجوده ولا وخْز له، فقط مساحة مُبهمة مشغولة.

تناولا الشاي في تلك الليلة، تحدَّثا عن بحثٍ مُثير عُرِض في ذلك اليوم في المؤتمر تبادلا أرقام الهاتف، أوصلها للمطار بعدها بيومين لأنَّ رحلتها كانت تسبقه بأسبوع، وتواعدا أن يتَّصِل أحدهما بالآخر ليتناولا شايًا آخر في بلدهما.

قبل الفجر بقليلٍ زالت الحُمَّى وفتح عينَيه مُشتاقًا لها، ضمَّها في حضنه، وبثَّ في جسدها دفئًا وشوقًا كبيرًا، شعرت بسخونة وجنَتَيها.. دائمًا ما يتلهَّب خدُّها في كل مرةٍ يمارسان فيها الحُب، دائمًا ما تشعر بخجلٍ مُربك، في تلك الليلة شعرت بامتلاء جسدها بالنشوة، ونامت في هدوءٍ ورَحب كطفلة.

لكنها صادفت رجلَ القمقم والشوارع المغسولة بالمطر، كان حلمًا مُختلفًا، ترتدي فستانًا أحمر تفترشه دوائر بيضاء، كانت جميلة في الحلم، وكان الرجل يبتسم لها ويشير نحو سُلَّم دائري معدني ظهر فجأة وسط الشوارع التي تألفها، صعدا معا حتى مُنتصفه، وفي لحظة هطل مطر كثيف، سمِعَت صوتَ وشيشِهِ ورائحته المختلطة بالأسفلت والعشب، اقترب منها الرجل وشعرت بأنفاسه على وجهها ثم استيقظت.

عندما فتحت عينيها كانت في حالة صدمة، جلست ترتعِش على طرف فراشها، وتفكر كيف ترى الحلم بعد تلك الليلة الدافئة التي قضتْها في حضن زوجها، شعرت بالغثيان، دخلت الحمام، أدارت الدشَّ وجلست على الأرض جواره وبكت واختلط صوتُها بصوت

الماء .. لكن طرقات الأولاد على باب الحمام اضطرَّتْها أن تتماسك وتخرج لمواجهة يومِها وحياتها.

حكت لصديقتها الوحيدة عن حلمها، حكت وهي تنتحِب بشدة وتشعر بالألم .. ربَّتت صديقتها على كتفها، طلبت منها ألا تُحمِّل نفسها فوق طاقتها، وألا تشعر بذلك الخزي، لأننا ليس لنا سلطان على الأحلام، طلبت منها أن تتقبَّل الأمر وتدَعَه يحدُث دون مزيدٍ من المقاومة.

فكرت هي أن كلام صديقتها يبدو معقولا، هي لا تتحكم في الحلم، كلُّ ما يُمكنها التحكُّم فيه هو الوعي، وهي تعرف أن زوجها وطفليها يملآن كل ذلك الوعي.

استسلمت للحلم وحاولت تجاهُلَه في الآن ذاته، يزورها رجل القمقم في الليالي التي يُريد، يتمشى جوارها ويبتسِم، عندما تستيقِظ تجلس للحظاتٍ على طرف فراشها، تطرد إحساس الخفة والراحة الذي يملؤها بسبب الحلم، تستبدله بالنظر في صورة زفافها المُعلقة في حجرة نومها.

وللصغار الذين يملئون البيتَ في الصباح بضوضاء مُحبَّبة وفوضى مألوفة.

تأبطت ذراع الأيام ومضت بين مسئولياتها في البيت، وعملها الصباحي بالمشفى، تعمل في عيادةٍ خارجية بمستشفى استثماري كبير، معروف عنها مهارتها في تخصُّصها، كانت قبل زواجها ذائعة الصِّيت ولا يمكنك أن تزورها في عيادتها الخاصة إلا بحجزٍ مُسبَق قد يصل لأسابيع.

لكن ذلك تغيَّر بعد شهورٍ قليلة من الزواج، أبدى الزوج تململًا واضحًا من عملها المسائي، خصوصًا أنه كان يعمل في الجامعة في سلك التدريس، ويشغل منصبًا في المشفى الجامعي، كان مشغولًا دائمًا في فترة النهار لكنه كان يقضي معظم الليل في البيت إلا يومَين في الأسبوع يعمل بمركز طبي قريب من البيت، وبدا مُستاءً من أن يبقى هو في عمله، وتبقى هي في عملها الصباحي والمسائي ويتركا البيت مظلمًا مهجورًا، أخبرَها أنه يكدُّ ويعمل ويبني مستقبلًا كافيًا لهما معًا، وأنها ليست في حاجة، كما قال، لتُضيِّعَ وقتًا أكثر خارج البيت، التي هي مَلِكَتُه.

في البداية رفضت أن تُغلق العيادة وتكتفي بالعمل في المشفى صباحًا، لكنَّ الزوج ألمح إلى أنها تحتاج أن ترتاح وتُركز سعيها كله في محاولة الإنجاب، ابتسم ابتسامة ثقيلة مختلطة، تبدو ابتسامةً مُحبَّةً لكنها قاسية، قالها لها صريحة؛ إنَّ سنَّها ليست صغيرة، وفُرَصَها في الإنجاب ستكون نادرة لو تأخرت عن ذلك، كانت في منتصف الثلاثينيات حين تزوجت.

كانت تعيش بروحٍ مرحة، وقلبٍ كبير.. شيءٌ ما تغيَّر في روحها، ضاق صدرها، وانقبض قلبُها كثيرًا، لدرجة أنها كانت تشعر بتساقط الأشياء التي تُحبُّها منه وانكماشه طوال الوقت ..

فقدت نصف الساعة التي تحتاجُها صباحًا للتأمُّل، فقدت حُبَّها للمشي، للتسلية بالتلوين بألوان الباستيل في كراسات الرسم المُخصَّصة للأطفال، تُحِبُّ ذلك منذ كانت صغيرة، تخرج كل تلك الممارسات الطاقة السلبية من جسدها تتركها أهدأ وأسعد.

تعليقات سخيفة دائمة جادة وهزلية من زوجها حيالَ كلِّ ما تفعله حوَّلَت حياتها لجحيم، ملاحظات تدخُل تحت جلدها، حول طريقة كلامِها وضحكتها وصوتها إذا ما ارتفع قليلًا بحماس، كانت تلك النبرة الحماسية تُغضبه جداً، تفقده الاهتمام فورًا بما تقول لينشغل بالنظر حوله ليرى إذا ما لاحظَها أحد لو كانا في مكانٍ عام، وإن كان في البيت ينظر نحو شرفة أو باب الحجرة أي شيء يُشعرها بالقلق وأن هناك من يتلصَّص على طريقتها الشاذة في الكلام.

حاولت أن تُغير طريقة كلامها لتبدوَ هادئة مُحايدة، وعندما نجحت أخيرًا، فقدت الرغبة في الحديث معه.

كان حملُها صعبًا. والتزامًا بتعليمات الطبيبة، أغلقت عيادتها، وحصلت على إجازةٍ عامًا من عملِها بالمشفى؛ ذلك العام الذي ظلَّ يتجدَّد عامًا بعد عامٍ حتى استطاعت أخيرًا بعد أربع سنوات، من العودة للعمل، عندما ذهب توءمها للحضانة.

لم تستغرق وقتًا طويلًا لتستعيدَ لياقتها في العمل، وتتابع الأبحاث والتقنيات التي فاتتها، لم تطلُب منه مساعدة، لكنها كانت تشعُر بالطاقة الساخنة التي تمرُّ له عبرَها، شيء غير مريح، شعور مُربك يُعجزها عن التنفُّس في حضوره.

كان انتقاله من حجرتهما المشتركة عندما أنجبت الطفلَين بمثابة مكافأةٍ لها لترتاح من ذلك الشعور الصامت السيئ الذي ينتقل لها عبر الهواء الذي يجمعهما طوال الوقت. عندما

كبر الطفلان وانفصلا عنها في حجرتهما لم يعُد هو للنوم جوارها، رتَّب أموره أن يبقى في حجرة المكتب مع السرير الصغير الذي وضعَه هناك بعد حملها، كان يزورها في حجرتها أحيانًا نادرة، يُشاركها الفراش دقائق وحين ينتهي يُربّت على كتفِها ويمنحها ابتسامته التي تُزعجها تلك، وينهض من الفراش ولا يعود سوى في مرة قادمة بعيدة.

بينما تجلس في الكافيه القريب من بيتها الجديد الذي اختارته صغيرًا على عكس بيت الزوجية.. حجرتان وصالة وشرفة تدخلها الشمس، حجرة لها وضعَت فيها مكتبًا وسريرًا صغيرً يكفي جسدَها بلا مساحاتٍ فائضة تؤرّقها وتسكنها الأشباح، فتشعُر أنَّ جسدها مشاعٌ لأي مجهول يريد أن يقضي دقائقَ مُلتصقًا بروحها. وحجرة لتوءمها، حيث استقرت بها الفتاة واختار الولد مكانًا لطيفًا في صالة البيت للنوم، وخزانة ملابس في الممرِ بين الحجرتَين،

أبدى الثلاثة السعادة والراحة في البيت الجديد، استعدَّ الطفلان كما تراهما هي دومًا لامتحانات الفصل الدراسي الأول من عامهما الجامعي الثاني، يدرس الولد اللغة الإنجليزية وآدابها، بينما تدرس البنت طبَّ العيون.

تبتسِم وهي تشرب قهوتها في مكانها المُعتاد في الكافيه، ترى ميدانًا واسعًا أمامها وشمسًا شتوية خفيفة أضاءت الدنيا، لكن نسمة هواء باردةً تراها في عيون المارَّة تلفُّ العالَم حولَها.

تتنفس براحة وهدوء وتفكر أنها تأخَّرت كثيرًا في الانفصال عن زوجها، وأنها لم تعش أسعد من العامَين الماضيين، وضعت يدَها على قلبها حيث تعرف أنه أصبح رائقًا بعدما خففَّت عنه حمله، نظرت نحو قدمَيها، كانت ترتدي حذاء رياضيًّا أحمر مريحًا يناسب ممارستها التي لا تهدأ لرياضة المشي، وشوقها الدائم للسير في الشوارع في الصباح الباكر..

تمشي حرة وسعيدة بعدما توقفت عن رؤية ذلك الحلم ..

تمضي دائمًا في شوارع طويلة تفوح منها رائحة المطر ونشوة البراح .

الجوقة

بعزفٍ مُتخيَّل لمقطع حماسي، وأقدام حافيه غجرية تدقُّ الأرض تُحاول أن تُلائم مصير الأبطال ..

تقف فرح كلَّ ليلة في شرفة البيت، تنتظِر عودته، يدقُّ قلبها بشوقٍ ولهفة، وتُفكر وهو قادمٌ من بعيدٍ و معه جوقته، بعدما ترجَّلوا جميعًا عن السيارة التي أوصلتهم لأول الشارع، ثم أكملت طريقها بقيادة عمِّ مجدي للمخزن الصغير حيث تُفرغ حمولتها. يبدو هو وسطهم مثل "يول براينر" أو"ستيف ماكوين" دائمًا ما تختار أن يكون هو واحدًا منهما لأنهما الناجيان من أبطال الفيلم إذا ما استثنت المُمثل الألماني الذي قام بدور "شيكو"؛ الفتي السابع المُتهوِّر الذي يُقرِّر في النهاية البقاء في القرية مع حبيبتِهِ والعمل في المزارع. تمامًا كما في فيلم العظماء السبعة، بموسيقاه التي تشحذ الهمة وتدغدغ الحماسة، تَراهم قادمين نحو البيت مثل الدخول الأول للقرية المكسيكية المنكوبة تلك.

رغم أنها مُراهقة في مرحلة التعليم قبل الجامعي، إلا أنها تفضل الأفلام الكلاسيكية، تحفظ حواراتها ويُعجبها وسامة أبطالها، وثقتهم في نفسهم، الأمر الذي ستضحك عليه فيما بعد وتُسمِّيه البطء في التمثيل والحركة، وكأنَّ كلَّ بطلٍ يريد أن يقول للكاميرا "انظري كيف أبدو في هذا المشهد!".

دائما ما تقف في الشرفة، تنتظِر أباها، وتُلوِّح له بفرحةٍ حقيقيةٍ معَ كلِّ ليلة، وكل ظهور كأنه غاب منذ شهورٍ وليس فقط من أول النهار.

يَبدُون بالترتيب ذاتِهِ وبالهيئةِ ذاتها في أيامِ ذهابهم للعمل، وأحيانًا عائدين منه مُجتمعِين ليحصلَ كلٌّ منهم على يوميته، يتقدَّمُهم المعلم محسن بقامته الطويلة وجسده الممشوق في بداية الأربعينيات، يَحظى باحترامِ الكبير والصغير، لأنه ابن بلد وتربية والده الحج بدر.

***

يمشى جواره طاهر، الفتى العِشريني الذي يُشبه شكري سرحان في شبابه، صاحِب الشعر المُلمَّع دائمًا والملابس المكوية التي لا تتناسب مع العمل الذي يقومون به، لكنه ابن

مدارس، يُسجل كل معاملات العمل، مع محلات المؤن والدَّفَعات التي يدفعها الزبائن، وما يَقبضه العمال وما يتبقى للجميع.

يعتمد عليه المعلم محسن في ذلك، ويُشيد أمام زوجته بأمانته، وهي من جانبها تُحبُّه وتعتبره مثل ابنها، وكثيرًا ما تتكلم عن اليوم الأول الذي جاء به والده إليهم، في إجازة نهاية العام للمدرسة التجارية، كان في السنة الدراسية التي تسبق التخرُّج، وعهد به لزوجها، كان والده صديقًا للحج بدر رحمه الله، فقبِلَه محسن كرامةً للصداقة، لكنه أحبَّه فورًا وسعِدَ بوجوده معه.

وكان الولد آخر العنقود بعد شابَّيْن جامِعيَّين ومتزوجَين، جاء الولد بعدما كبر الرجل وصار شيخًا، وعلى الرغم من الهدوء الظاهري للولد، وكلامِهِ الحلو وابتسامته الهادئة وانشغاله بالقراءة في كُتُب التاريخ والسياسة، إلا أنَّ روحه كان لها وجهٌ مخفيٌّ، وجهٌ دفين ومكبوت، عندما يكون بمفرده كان يميل للتهوُّر، مُعجَب بفتوات الأفلام، يسير كالمجذوب نحو المشكلات، ليس رغبة منه في التدخل، ولكن ليشاهد كيف يتصرَّف الرجال أصحاب السلطة والعضلات، كان يفكر بينه وبين نفسه أنه مشروع رجلٍ ذو سلطة وهيبة يُمكنه أن يقتحم أماكن ويكسر زجاجاتٍ وأثاثًا وأن يكون له صوت جهور ونظرة مُرعبة .. فقط لو عرف الطريق لذلك أو جاءته الفرصة.

***

يسير خلفهم أو جوارهم، شاهين السباك، عريض ضخم، بشرته داكنة قليلًا، يرتدي نظارة سميكة، ينظر في مشيته نحو الأرض كأنه يبحث عن شيء مفقود منه .. في بداية الثلاثينيات، قوي البنيان ماهر في صنعته يستطيع أن يضع أساس أعمال السباكة لبنايةٍ كاملة في أيامٍ قليلة، لدَيه لعثمة واضحة في كلامه وُلِد بها، غير مُتعلم لكنه متزوج منذ أربعة أعوام من مُدرِّسة لغة إنجليزية تكبُرُه بعشرة أعوام، تعرفت عليه أثناء عمله في شقَّتِها بعدما أغرق انسدادُ الصرف البيت، لم تكن جميلةً، كما يقول عنها شاهين، لكنها بنت أصول؛ أكرمتني في بيتها. والحقيقة أنه تزوَّجها في شقَّتِها ولم تُطالِبه بأي مصاريف للزواج، لكنها كتبت مؤخَّر صداقٍ كبيرًا حتى تضمن حقَّها وحتى لا يغدُر بها كما قالت. أنجبت منه توءمًا من الذكور وطفلة، ثم تحولت لسيدة أخرى، سليطة اللسان، شرسة، لا تُفوِّت فرصةً لتُقلِّل منه وتُهينه، خصوصًا في

أيام التعطُّل التي قد تطول لأسابيع، وفي الشتاء حين يُصبح العمل في تجديد البيوت نادرًا .. طالبَتْه بزيادة حصته في مصروف البيت والأطفال، وكان يُعطيها مُعظم ما يتحصَّل عليه من عمله. هي كانت ذائعة الصِّيت في تدريس اللغة الإنجليزية وكانت تُعطي دروسًا خاصةً طوال الوقت في بيتها أو لدى الطلبة، كانت تُطالبه بالبقاء مع الأولاد حتى عودتها، لأن دخلَها أكبر منه ويجب عليه مساعدتها لتسير سفينة الزواج، كما كانت تقول دائما. في البداية حاول أن يُنفِّذَ ما طلبَتْه، لكنه ضاق ذرعًا بصراخ الأطفال وطلباتهم التي لا تنتهي، وحنَّ كثيرًا لحياته وعمله، وعندما صارَحَها بأن الأمور على هذه الوتيرة لا تُناسِبه، طردَتْه في الشارع، وهدَّدَتْه أنها ستلجأ للقانون وتسجنه لو ضايقها أو اقترب من بيتها وأولادها مرةً أخرى، عاد شاهين للعيش مع أُمِّه في حجرتها التي تقع أسفل السُّلَّم في بناية قديمة، وكان كلما جاء على ذكر زوجته قال: إنها لم تكن جميلة وتعاملَتْ معه كأنثى النحل، يقولها ويسرح في عالَمٍ آخر، أو يُطأطئ رأسه ويمشي كأنما يبحث عن شيء.

بينما كانت تضحك هي بشدة كلما سألها أحد أقاربها أو أصدقائها عن قصة زواجهما والخلافات بينهما وتقول بدلال أنثوي إنها حقَّقَت حُلم حياتها بأن تكون أمًّا، وليذهب هو للجحيم.

معهم أيضًا شريف الذي يُجهز العمل، ويمهد الحوائط قبل طلائها، يشتري لوازم الجميع من الشارع، ثم يُرتب كل شيءٍ ويمحو أثر فوضى عملهم قبل تسليم البيوت لأصحابها. يعرفه المعلم محسن منذ صِغره، يقول عنه إنَّ أباه رجل طيب في حاله، يبيع خردوات أمام المسجد جوار بيته، بينما تطبخ زوجته حلة طعام وتبيعها جوار موقف الأتوبيس، أيامًا تبيع المكرونة بالصلصة الحمراء الحارقة تضعها في أرغفة، وأيامًا أخرى تبيع محشي الكرنب، حيث تلفُّ كل رغيف خبز بعشرة أصابع منه ويكون له رواجٌ كبير لدى الباعة والعابرين، تجلس في السابعة صباحًا في مكانها وتعود للبيت بحلَّتها فارغةً قرب الظهر، لا تستطيع القيام بورديةٍ أخرى لأنها سيدة كبيرة وصحَّتها لا تحتمل شقاءً أكثر من ذلك.

لم يحضر شريف يومًا للعمل من تلقاء نفسه، على المعلم محسن أن يُرسل في طلبه مراتٍ عديدة كل صباح، وفي النهاية يذهب حتى بيتِهِ وينادي ولا يتلقَّى ردًّا، ثم يصعد كل تلك الأدوار، حيث يسكن غرفة السطح مع أمِّهِ وأبيه، ويجد الباب مواربًا والولد نائمًا كمن وقع

عليه حائط. يسحَبُه من الفراش ويسبُّه فينهض الولد ويستعدُّ للعمل. في الأيام القليلة التي تعود فيها أمه مبكرًا أو لا تغادر البيت للعمل، تخرج للمعلم محسن عندما ينادي عليه من أسفل البيت وتقول إنه خرج أو أنه ذهب للعمل منذ الصباح الباكر، لكن المعلم يعرف بخبرتِه أنها تكذب وتُداري عليه ليرتاح، أحيانًا يتركه ويذهب، لكنه إذا كان في حاجةٍ ماسَّةٍ له يصعد السلالم ويجذبه من ملابسه لينهض ويذهب معه، وحينها يتورَّد خد السيدة خجلًا فيبتسِم لها المعلم وينزل السلالم وهو يضحك إذا كان في مزاجٍ رائق، أو يُغادر السطح وهو يسبُّ بصوتٍ خفيض في سره، إذا كان متأخرًا عن العمل وفي مزاج سيئ.

***

ثم علي الأبيض وهو فرد غير دائم في الجوقة، يعمل مع المعلم عند عودته من السفر لأي بلدٍ؛ حيث يذهب مع العمالة المسافرة من قريته، يقضي هناك عدة شهور، ثم يعود بنظَّارة شمس وملابس أنيقة غير مُتناسقة، وبشرته التي تزداد شحوبًا، أول ما يفعله عند عودته من السفر هو زيارة المعلم محسن، ومعه صندوق ممتلئ بأجهزة كهربائية، خلاط كهربائي، مطحنة توابل، راديو، أكبر ما يحويه الصندوق قد يكون مكنسةً كهربائية. يُخبره أن الله قد كرَمَه كثيرًا، ولم يعُد يحتاج للعمل اليدوي الشاق، وأنه سيُؤسس مشروعًا خاصًّا به، خلال أسابيع يكون قد باع كل ما كان في صندوقه لأمِّ فرَح التي تشتري منه لها أو لقريباتها لكي تُساعده، ثم يعود للمعلم حاملًا كيسًا بلاستيكيًّا به ملابس العمل، ودون كلام يمدُّ يده ويشارك في العمل، لكنه في أوقات الراحة يجتمع مع شاهين وشريف ليحكي لهم عن مُغامراته في البلاد التي زارها والنساء اللاتي وقعنَ في غرامه، قبل أن ينهرهم المعلم محسن عن هذه الأحاديث الفارغة.

هؤلاء هم فريقه الدائم، يزداد عليهم في كل مقاولة، بعض العمَّال الآخرين للتكسير وتحميل الردم ولدَيه عاملان أو ثلاثة يتعامَل معهم في كل مجالٍ لتركيب السيراميك، ودهان الحوائط وغيره.

سيجلس طاهر جوار المعلم محسن ليسجِّلا حسابات اليوم على الأريكة الخشبية التي كانت في الأصل جزءًا من جهاز أم فرَح زوجته قبل عشرين عامًا، ثم نقلتْها لسطح المنزل ومعها بعض الكراسي ومنضدة معدنية قابلة للطيِّ وعدة للشاي والقهوة على رفٍّ رخاميٍّ صُنع

جوار صنبورٍ صغير ليُلبي احتياجات المجلس دون حاجةٍ لإزعاجها، وتحايَلا على فكرة الجلوس بالمقهى التي يرفُضها المعلم محسن ويراها جلسةً لا تصلح لمناقشة أمور العمل وتوزيع المهام، ومنح كلّ عاملٍ يوميته.

لأن المقهى القريب من بيته يُقيم فيه بالأساس كل العاطلين عن العمل، أو العائدين من أعمالهم ويبحثون عن التسلية في معرفة أخبار الناس. الرغبة في التطفل على المعلم محسن وغيره كانت كبيرة في ذلك الحي الذي لا يحدُث فيه جديد، ويملؤه الفقر بلا أي طيفٍ لأمل الخروج منه. كلما جاءت سِيرة المقهى يُحب المعلم محسن أن يحكي تلك الواقعة التي كانت نهاية عهده بذلك المكان؛ يحكي عن جلسته ذات يومٍ ليحتسي كوبًا من الشاي، الشيء الوحيد الذي يحتسيه؛ فهو لا يقرب المخدرات أو غيرها، مختلفًا بذلك عن طائفة العمَّال والحرفِيّين التي ينتمي لها، يقول جرَّبتُ في شبابي لكنّي لم أنجرف، ثم جاءت أمُّ فرح فبدأ عهدٌ جديد مع الدُّنيا، يقول ذلك ويختم جملته عنها دائما "ربنا يخليها ليا ست الستات".

***

ما إن أمسك كوب الشاي بيده، حتى وجد سعيد الحلاق مقبلًا نحوَه ومعه رجل غريب عن المكان، جلسا جواره، واقترب سعيد منه قائلًا بهمسٍ إنه أحضر له زبونًا يرغب في طلاء شقته، وأن الشقة خمسُ غرف، رحَّب المعلم محسن بالرجل وسأله أين تقع شقته، فأخبره في العمارة القديمة في نهاية الشارع عند البيت المهجور، كان المعلم مُحسن يعرف المكان جيدًا، فقد أحضره ورثة صاحب البيت المهجور منذ عامَين لعمل صيانةٍ للبيت، ودهان الحوائط وتصليح السباكة وتركيب الكهرباء، وتقاضى بالفعل عربونا كبيرًا، جمع جوقته ووزَّع عليهم المهام، أحضروا في اليوم التالي المؤن .. لكن أحدًا لم يبدأ العمل هناك، لأن شيئًا غير مرئي كان يسكب المؤن على الأرض ويُشعل النيران في العدة والأدوات، الجميع كانوا يسمعون أصواتًا ويرَون في عزِ النهار أشباحًا تتحرك.

بعد يومَين خرجت الجوقة كاملة من البيت ولم يعودوا ثانيةً حتى أنهم تركوا هناك ملابس العمل ومعظم عدَّتهم، تذكَّر المعلم محسن الحكاية وابتسم ابتسامةً خفيفة قبل أن يُخبر الرجل أنه يعرف المكان جيدًا.

وعده أن يذهب ومعه مساعِدُه طاهر في اليوم التالي للمُعاينة حتى يتَّفِقا على كل شيء، لكن الرجل أصرَّ أن يدفع عربونًا ربط كلام، عندما غادر الرجل، وقف سعيد الحلاق جوار المُعلم محسن وجعل يفرك يدَيه ببعضهما رغم أن الجو لم يكن باردًا سحب المعلم ورقتَين من المبلغ ومنحهم له وشكره.

في اليوم التالي عرف من الزبون أنه ليس من طرف سعيد الحلاق وإنما جاءه من طرف سيدةٍ أصلح لها بيتها منذ عامٍ في شارع السوق، وأنه فقط وقف أمام دكان الحلاق وسأل عن المعلم محسن فتطوَّع الرجلُ لإرشاده .. تضايق المعلم محسن من تطفُّل الحلاق، وكيف جلس وسطهم ليسمع تفاصيل العمل وهو شيءٌ لا يُحبه المعلم. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، فقد فُوجئ بسعيد حاملًا كرسيًّا وجالسًا أمام باب شقة الزبون في اليوم الأول للعمل هناك، وعندما استغرب من تصرُّفه وسأله عن سببه، ابتسم وهو يفرُك يدَيهِ وأخبرَه أنه يُباشر عمله وأنه شريك في هذه المصلحة.

مما اضطرَّ المعلم محسن الذي لم يكن يُحب العنف أن يسحبَهُ من ملابسه ويَجرَّهُ طردًا حتى باب العقار. يقول سعيد الحلاق إن العِشرة والجيرة وحدَهما هما ما منعاه من اتخاذ أي إجراءٍ ضد المعلم محسن، ويقول المعلم محسن إنه لن يجلس أبدًا ما تبقَّى من حياته على مقهى.

***

يُدير المعلم جوقته بطريقةٍ عفوية، فهو رجل لم يُكمل تعليمه، يعرف القراءة جيدًا، ويكتب اسمه وبعض الكلمات لكنه في المُجمل لا يستطيع الكتابة؛ ذلك لأنه ترك المدرسة قبل أن يحصُل على شهادة الإعدادية. يحكي الواقعة بطريقتَين، فيقول مرة أنه غادر المدرسة بسبب مُدرس اللغة العربية كان رجلًا قاسيًا غليظ القلب، قرَّر ذات يومٍ مُعاقبته بضربِه على قدمَيه، وعندما نادى فرَّاش المدرسة ليربطه حتى يتمكَّن من ضربه، جرى الدمُ في عروقه، ورأى أنه من غير اللائق أن تتمَّ معاملتُه بهذه الطريقة، وهو أسطى كبير في ورشة تصنع أشكال الديكور من الجبس الأبيض؛ الورشة الكبيرة الواقعة خلف المدرسة بشارعين. خطف العصا من يد المدرس، ونزل بها على ظهره ثم فرَّ هاربًا ولم يعُد للمدرسة ثانية .. سيحكي هذه الحكاية وتلمح على وجهه ابتسامة مزيجًا من الفخر والخجل. الحكاية الثانية التي يحكيها عن سبب

خروجه من المدرسة أنه في الصباح وبينما كان ذاهبًا لامتحان الإعدادية، مرَّ جوار والده الذي كان يجلس على باب البيت من الخارج كعادته يحتسي الشاي مع فطيرة تُقدِّمها له زوجته، ويقرأ الجريدة، كان كبيرَ عمَّالٍ في إحدى ورش تصنيع الجلود لكنه كان مُثقفًا ويُحب قراءة الجريدة كل صباح، بينما مرَّ محسن من أمامه، ناداه والده وسأله أين يذهب باكرًا هكذا، فأخبره أنه سيذهب للامتحان، وكان والده قد بعثه منذ ثلاثة أعوام لصديقٍ له صاحب ورشة كبيرة لتصنيع مُستلزمات ديكور البيوت من بيوت النور والتماثيل المصنوعة من الجبس، وبالفعل عمل محسن صبيًّا باليومية، وفي شهور قليلة تمكن من الصنعة واستعان به صاحب الورشة ليدير ورديةً كاملة بمفرده، وكان يذهب أيضًا للمدرسة.

ناوله أبوه الجريدة وطلب منه أن يقرأ عنوانًا جانبيًّا كبيرًا اختاره عشوائيًّا، وبينما احتسى والده الشاي والْتهم الفطيرة كاملةً لم يكن مُحسن قد تجاوز الحرف الثالث من الكلمة الأولى في العنوان، والتي كان "المسئولون يُشيدون بجهود تطوير التعليم وسلاسة خطة الامتحانات"، مما جعل والده يفقد أعصابه ويخطف الجريدة من يدِهِ ويُكوِّرها ثم يقذفها في وجهه، ويحلف يمين طلاق أنه لن يذهب إلى الامتحان بل ولا إلى المدرسة مرةً ثانية.

يمكنك أن تسمع حكاية منهما، أو الاثنتَين معًا، يُمكنك أن تختار إحداهما وتعتبرها سبب عدَم إكمال المعلم محسن تعليمه، وتتعاطف معه أو مع والده أو تنسى الأمر كله، وتتذكَّر فقط أنه رجل شريف يعمل بكدٍّ وكثيرٍ من الفوضى.

يُغالِطه بعض الزبائن في الحساب، أو يدفعون نصف ما تم الاتفاق عليه، ويتهربون من دفع الباقي، يشحُّ في مهنته العمَّال المُلتزمون بالمواعيد، لا يتعاطَون المخدرات، وهو كان ينتقي بعنايةٍ ويقول إنهم يدخلون بيوت الناس للعمل وذلك أمر ليس هينًا، وإنها أمانة كبيرة .. كان يطلُب من زوجته أو ابنته الجلوس جوارَه ليلًا وتسجيل ما يُمليه عليهن، كنَّ يُسجلنَ كل شيءٍ من ذاكرته وفي أوراق يَطويها غالبًا ويضعها في جيوبه، قبل أن يفقدها ويطلُب من إحداهما التدوين من جديد. لكن الأمور تحسَّنت كثيرًا بعد عمل طاهر معه، أنشأ دفترًا وسجَّل كل شيء .. المصاريف والديون وأجرة العمَّال، ودفعات الزبائن.

يعمل الرجل بيدِهِ مع عمَّاله في كثيرٍ من الأحيان، وكثيرًا ما تأخذه الحماسة ويعمل دون أن يرتدي ملابس العمل، وكثيرًا ما علقت أم فرَح على بُقَع ونقط طلاء الألوان التي تترك أثرًا

على كل ملابسه، فلا تجد طقمًا واحدًا مناسبًا إذا ما أرادت الخروج معه في زيارةٍ أو شيءٍ بعيدٍ عن أمور العمل. ظلَّ يَعِدُها أنه سيأخذ حذره، لكنه لم يفعل، وعندما كبرت فرَح ابنتُه الوحيدة ووجهت له نفس الملاحظة، حزن قليلًا وأخبرها أنه لا يخجل من عمله، الأمر الذي تداركَتْه هي وأخبرته أنها هي الأخرى لا تخجل من عملِه لكنها تُحب أن تراه وسيمًا وأنيقًا كما يستحق.

***

تحب فرح أباها جدًّا فهو حنون ومُتفتح العقل، ولم يُشعرها بالعَوَز قط، حتى عندما ضاقت الأمور لسنوات، وكانت هي في المرحلة الإعدادية، حيث لزِم والدها البيت فترةً طويلة، لولا مُدَّخرات قليلة مرَّرَت ذلك الوقت الصعب، لكنَّ فرح تذكُر مع ذلك أنها لم يكن ينقصُها شيء، وأنه كل صباحٍ عند ذهابها للمدرسة كانت تمرُّ على حجرته لتُحيِّيه، ويكون جالسًا على كُرسيه الخشبي المُبطن بالقطيفة في حجرة النوم، يتصفَّح الجريدة أو يحتسي الشاي بالحليب، تطبع على خدِّه قبلة، وتهمُّ بالخروج قبل أن يُناديها ويبتسم ويُشير لها نحو جيب بنطالِه المُعلق على شماعة الملابس. حتى الآن تتذكَّر تلك اللحظة القلقة السحرية، تعرف أنه لا يُوجَد ما يكفي من النقود لإدارة الأمور الضرورية في البيت، ومع ذلك لا يخذلها أبدًا؛ ذلك الجيب طالَما أدخلت يدَها لهناك وخرجت بمصروفٍ لها أو ثمن كتاب أو مبلغٍ تحتاجه لدرسٍ خصوصي، كل شيءٍ كان هناك في ذلك الجراب السحري.

فرح مُدلَّلة أبيها حصلت على الثانوية العامة والتحقت بكلية الألسُن وتخرَّجت من قسم اللغة الإسبانية، ثم التحقت بعملٍ في إحدى السفارات.

بدَت عروسةً حلوةً لها طلَّة أنيقة رغم بساطتها، وروحٌ طيبة تُشبِه روح أبيها، تزوَّجت زميلًا لها وعاشت في حيٍّ بعيدٍ قليلًا لكنها بقِيَت دائمًا ابنةً بارةً ومُحبة للمعلم محسن وأمِّها.

***

نالت الأيام من الجوقة كلها، كما تنال من كل شيء، تقضم الصحة والعمر والمستقبل والصداقات التي تبدو مُمتدة بلا نهاية، تلاشت أخبار "علي الأبيض" بعد مُغادرته على قاربٍ ينقل العمَّال بالتهريب على شاطئ بلدٍ ما، يقول البعض إنه غرق مثل الآلاف غيره، ويرى آخرون ممَّن اعتادوا التجمُّع حوله وسماع حكايته أنه بالتأكيد تزوَّج من فتاةٍ ثرية جميلة بعدما

سحرَها وأوقعها في غرامه، وتدلَّل عليها كثيرًا حتى ذهب أبوها إليه وتوسَّل له أن يتزوَّج ابنته وقدَّم له مبلغًا ماليًّا طائلًا، أنشأ تجارة كبيرة لبيع الأدوات الكهربائية.

الولد "شريف" ظلَّ نائمًا في الفراش طوال شهور بعد وفاة أمّهِ، أختبأ من المعلم محسن وأحكم إغلاق الباب حتى لا تطوله يدُه وتظاهر بعدم التواجُد في البيت .. كان ينهض في المساء، يأكل كلَّ ما يجده في الثلاجة الصغيرة أو ما يضعه والده على المنضدة من خبزٍ أو خضروات، يأكل كل شيء، وطوال شهورٍ عاتبَه أبوه، ووبَّخَه مُطالبا إيَّاه بالعمل والإنفاق على نفسه، وفي النهاية غادر والده البيت ولم يعرف أحد له طريقًا، باع الولد كل أثاث الحجرة وأكل بثمنِه، وعندما لم يتبقَّ سوى لمبةٍ مُستديرة مُتدلّية من السقف وكرسي خشبي ومرتبة صغيرة في الأرض، ارتدى ملابسه وذهب لمُعلمه، لم يكن لدى المعلم عملٌ وقتَها لكنَّه منحه بعض المال وأعطته أم فرح ملابس وطعامًا، وصار يمرُّ عليهم كل يوم تقريبًا، إذا كان هناك عمل يعمل، وإن لم يكن يُناوله المعلم مبلغًا صغيرًا وتُعطيه زوجته وجبةً ساخنة.

حتى جاء ذات يوم وودَّعهما، وقال إن عمَّه أرسل له من البلد، وأخبره أن والده مريضٌ ويعيش معه في بيته، وطلب منه المجيء للزيارة .. تلك الزيارة التي لم تنتهِ، حيث دُفِن والدُه بعدها بيومين، وبقِيَ هو مع عمّهِ يعمل باليومية في الزراعة، ويأكل وينام في بيت عمه.

استقرَّ شاهين في عمله بمحلٍّ بيع أدوات السباكة، وتزوَّج من فتاةٍ صغيرة يتيمة، أنجبت له ولدًا، تحسَّنت حالته كثيرًا، وتعلم أن يرفع وجهه قليلًا في وجه الحياة كلما خطا خطوة للأمام.

وجد "طاهر" ما كان يبحث عنه أخيرًا، تعرَّف على رجل يعمل في ترويج المخدرات، ذائع الصيت، لدَيه صبيان كُثر، لكن طاهر وفي وقتٍ قليلٍ أصبح مُقربًا منه، كان ذلك بعد وفاة أمّهِ ووفاة أبيه وقد فصلت بينهما أسابيع، أخيرًا أصبح وحيدًا في البيت، حزن المعلم محسن وزوجته على مصيره ذلك، لكنه كان يزورهما ويُطمئنهما أن كل تلك الإشاعات لا أساس لها من الصحة، وأنه يعمل مع الرجل في تجارة مشروعه.

ليس هناك خبر مؤكد، عما إذا كان قد أدمن المخدرات قبلَ أم بعدَ دخوله الأول للسجن.

تبدلت هيئته، وتقلصت قامتُه، وسقطت أسنانُه، نبرة صوتِه صارت بطيئةً تائهة، يختفي بالشهور والسنوات، ويسأل المعلم محسن عنه إخوته، غالبًا ما يكون مسجونًا أو قيْد التحقيق، وفي المرة الأخيرة التي عاد فيها للبيت بعد فترة حبس شهور قليلة، فكَّ باب الشقة وباعَه

للنجار، واشترى مُخدرًا يكفي ليلته. جلس في الحجرة الداخلية لأنه شعر أن صالة البيت أصبحت مكشوفةً أكثر من اللازم، تناول المُخدر كاملًا، وجدوه في الصباح ميتًا على الكرسي الوحيد في الحجرة الداخلية، ربما فكر قبل لحظةٍ من غيابِهِ أنه حقَّق ما كان يتمنَّاه، أو ربما لو جاءت فرصة جديدة ليقوم بالأمر بطريقةٍ أفضل فيتجنَّب السجن، أو يصنع تجارةً خاصةً به من المُخدر الذي يُفضله ليتمكن هو نفسه من التعاطي كلما أراد.

توقف المعلم محسن عن ذلك العمل عندما أكمل الخامسة والخمسين، ملَّ قلة العمال، وعدم انضباطهم، ومُماطلة الزبائن، شارك في محلٍّ صغير لصناعة الحلوى الشرقية، واكتفى بإيرادٍ معقول يتحصَّل عليه منه، كان يذهب للمحل مرةً كل أسبوع أو اثنين؛ فهي لم تكن مهنته كما يقول، ولولا ثقته في صديقه الذي يُشاركه هذه التجارة ما أقدم على هذه الخطوة.

بينما كان يقضي مُعظم وقته في البيت مع أمِّ فرح، يتحدثان ويضحكان، يطهوان الطعام معًا، وفي المساء يجلسان في الشرفة ليحتسيا الشاي بالنعناع الأخضر الذي يزرعه فوق سطح البيت، ومعه بعض النباتات الأخرى للتسلية وقتْل الوقت..

يجلس جوار حبيبته "أم فرح" ينظر نحوَها بمحبةٍ وامتنان حقيقي، قبل أن يُلقي نظرة طويلة على الشارع، ويلمح خيال جوقة من الرجال تُشبه أبطال فيلم ابنته المُفضل وهم يدخلون قريةً مكسيكية منكوبة في نهار بعيد.

دَين قديم

وقف أمام البيت يتفحَّصه .. بيت مُهترئ يقع في شارع ضيّق في حيٍّ شعبي قريب من الجامعة التي يرتادها، البيت مُكوَّن من طابقين، يحمل حقيبة سفر قديمة في يدٍ، توقَّف الناس عن استخدام ما يُشبهها منذ عشرين عامًا، وفي يدهِ الأخرى رابطة كتب كبيرة ملفوفة بحبل غسيل سميك.

هشام طالب الهندسة الذي أكمل العشرين منذ أيام، بجسدٍ قليل، وبشرةٍ داكنة، عيون تُغطيها نظارة طبية مربوطة إحدى ذراعَيها بلاصقٍ أصفر، كالذي يُستخدم في لصق المعادن والخشب، حركته هادئة وبطيئة، خطا بقدمَيه خلف الرجل الذي وجد له الحجرة.

قال الرجل وهُما يصعدان السُّلَّم: إن الناس في هذا البيت على قدْرٍ كبير من الطيبة، ولا يتدخَّلون في شئون أحد، وأن الحاجَّة سهير سيدة فاضلة.

حرك هشام فمه ليُعلق على كلام الرجل، لكنه قرَّر أن يصمت، هز رأسه وصعد حتى النهاية.

وقف على حافة الدرجة الأخيرة من السُّلَّم، بينما تقدَّم الرجل وطرق الباب، ثم نادى بصوتٍ قوي على الحاجَّة، فتح الباب طفل صغير في العاشرة يميل للبدانة، أبيض البشرة بشعرٍ أشقر مُجعد وبُقع نمش بُنية كبيرة.

ألقى نظرةً عليهما ودون أن يتحدث هز رأسه ودخل للبيت، بعد دقائق أطلَّت سيدة قد تكون في منتصف الأربعينيات ترتدي عباءة بيت غامقة مُمتلئة قليلًا، تُغطي شعرها بإيشارب أسود، بها مسحة جمال لا تُخطئها عين وإن تدارت وراء عيونٍ مُحملة بالهمِّ والمسئولية.

ابتسمت ورحَّبت بالرجل وضيفه، نادت بصوت خفيض على رياض، فظهر الطفل البدين المُنمَّش، وناولها مفتاحًا، ناولت بدورها المفتاح للسمسار، الذي أخبرها أنه سيُنهي كل شيء مع الباشمهندس.

أخبرته أنها حضَّرت العقد وتنتظرهما بعد أن يُريه الحجرة.

تركت الباب مفتوحًا ودخلت شقتها، بينما أدار الرجل المفتاح الذي تناوله منها في الباب المجاور لبابها، وطلب من الزبون الدخول بقدمِهِ اليُمني، أضاء مفتاح النور. ورغم عدم تفاؤل هشام بما قد يجده في الداخل إلَّا أن الحجرة كانت جيدة فعلًا، مساحتها معقولة جدًّا وبها

شباك كبير يُطل على الشارع، مفروشة بفرش معقول؛ سرير، ودولاب ملابس دلفة واحدة، ومكتب متر، وكرسي خشب وآخَر يُشبه الفوتيه.

وعدة أرفُف خشبية مُثبتة على الحائط تصلُح مكتبة، بوتاجاز كهربائي بعينين، وأدوات مطبخ بسيطة، وحمام صغير مُغلق بباب ٍ خشبي يمكن طيُّه.

ابتسم هشام لأول مرة منذ أسابيع، وأومأ للرجل بالموافقة، ترك الحقيبة والكتب في الحجرة، وذهب مع الرجل لشقة الحاجة سهير.

أخبرته بالمبلغ الذي تؤجِّرها به وأنها تتقاضى شهرَين تأمينًا، لكن الرجل تدخَّل وقال لها إن الباشمهندس مضمون وابن ناس ويدرس في السنة الأخيرة بكلية الهندسة.

وأن والده أوصاه أن يجد له مكانًا بسعر معقول. بعد مجادلات قصيرة، وافقت الحاجة على أن تتقاضى شهرًا للتأمين، ناولها الرجل المبلغ بعدما أخذه من يد هشام وعدَّه مرتَين، وقَّعا نسختَين من العقد، واستلم كل منهما نسخته، ثم سحبت الحاجة نصف قيمة شهر ومنحته للرجل وشكرتْه.

قبل أن يُغادر هشام الشقة ومعه الرجل قالت له إنها لا تؤجِّر الحجرة لمن هُم في مثل ظروفه وأنها تُفضل رجلًا وامرأته لأن لديها بنتًا، لكنها توسَّمت فيه خيرًا ورجته ألا يخذل ثِقتها تلك. وأخبرتْه ألَّا يتسبب في ضوضاء من أي نوع حتى لا يُغضب الجيران، لأن الحجرة في النهاية جزء اقتطعته من شقتها لتأجيره ليُساعد على المعيشة، وذلك أمر غير قانوني.

لاحظ هشام فيما بعد أن هناك بابًا مغلقًا من الناحية الأخرى يقع تحت لوحٍ خشبي مُثبت جيدًا من ناحيته.

طالما راودتْه الخيالات في ليالي الصيف الحارة، أو في ليالي الشتاء التي احتاجت للونس، أنَّ الحاجَّة سهير وأولادها طلبوا منه إزالة اللوح الخشبي من ناحيته، وفتحوا الباب بينهم، وأنهم أخبروه أنهم معجبون بأخلاقه وأنهم يشعرون بالفخر لأن يعرفوا أحدًا سيتخرَّج بعد أشهُر قليلة ويُصبح مهندسًا وأنهم يعتبرونه أحد أفراد العائلة.

شعر هشام بالهدوء والسكينة في مسكنِه الجديد، كان يتمشَّى للجامعة التي تبعد شارعَين عن المكان، يُذاكر معظم الوقت، لا يُصدر ضوضاء كما طلبت منه الحاجة.

كان يقضي وقت فراغه كلَّه في التفكير، يجلس على الكرسي القديم الذي يُشبه الفوتيه ويضع رأسه بين يدَيه ويُفكر في تخلِّي والده عنه؛ يُفكر وقد ملأه الحنق والغضب، بينما يجلس فاردًا ظهره، وعيونُه مُثبتة على السقف وهو يفكر في الحاجة سهير وعائلتها ويبدو مرتاحًا قليلًا.

يذهب في الجمعة الأولى من كل شهرٍ لبيت والده، حيث يتناول الغداء معه وزوجته في حضور ابنها المُقعد الذي احتلَّ مكانه وأخذ حجرته الصغيرة، وأريكته التي طالما استخدمها للنوم، وشعر بكفِّ أمِّه وهي تُحكم الغطاء حوله في ليالي الشتاء.

يسأله والده عن أحواله ودراسته، وعن السكن والجيران ويستفسِر إذا ما ضايقَه أحد، وفي النهاية يُناوله كوب الشاي ليشربَه ومعه ظرف به مصاريف الشهر. ثم يبدأ في التململُ والتثاؤب، حتى ينهض هشام من مكانه ويستأذن للرحيل فيجيء صوت زوجة أبيه من الداخل بفتورٍ تدعوه للمكوث قليلًا لكنه يشكُرها ويُغادر.

ماتت والدتُه العام الماضي بعدما أكل جسدها الفشل الكلوي، وأرهق الغسيل أوردَتها، في الشهور الأخيرة حملَها أبوه لبيت أُختها وأخبرها أنه لا يستطيع الاعتناء بها أكثر من ذلك، وأنه فعل ما عليه وأكثر، واختتم كلامه بأنها في النهاية لحمكم.

خالة هشام الذي اختار ألا يُحبها منذ صغره، لم يعرف سببًا لذلك لكنه كان ينزعج عندما يزورها مع أمِّه ويجد بيتَها واسعًا وأنيقًا تدخله الشمس، وأولادها يرتدون ملابس جميلة ويلعبون بألعابٍ لم يرَها من قبل، كان صدرُه يضيق وهو يرى أمَّه بثيابٍ مهلهلة بينما ترتدي خالتُه أساور ذهبية كافيه لإطعام حي كامل.

كانت أمُّ هشام تُحب زوجها، هي التي أفنت عمرها كلَّه معه، واحتملت ظروفه القاسية في بداية زواجهما.. كانت تسأل عنه بشكلٍ مُتواصل في الأيام الأخيرة، وتطلب من أختها أن تُهاتفه ليزورَها، وطالَما وعدَها بالمجيء، لكنها ماتت دون أن تراه مرةً أخرى، ماتت وقد أوجعها الحزن أكثر من المرض.

خطبها قبلَه رجل ثري يعمل بوظيفةٍ محترمة ولديه بيت واسع يطلُّ على ميدان كبير، وبعدما وافق والدُها وأعطاه كلمته، جاءته طليقة الرجل وقالت إنها تُحبه وستقتُل نفسها لو تزوَّج غيرها وأنها تُخاطب فيه الشهامة والرجولة؛ طلبت منه أن يفسخ الخطبة حتى يعود زوجها لها.

ووعدها الأب، ونفَّذ كلمته رغم تمسُّك العريس بابنته، وتأكيده أنه لن يعود لطليقته مهما حدث وأنها سيدة صعبة العِشرة، قاسية الطبع.

أصرَّ والدها رغم بكائها وتوسُّلاتها ألا يكسر قلبها، لكنه فعل وفاءً لكلمته كما قال للجميع.

غادر العريس، ولم يعُد لطليقته، حتى إنها ذهبت إليه في بيتِه المُطل على الميدان الكبير ورجَتْه وبكت كثيرًا، وعندما صدَّها، طلبت منه أن يُناولها كوب ماءٍ قبل أن ترحل، ثم دخلت للشرفة وألقت بنفسها وماتت.

لازَمَ سوء الحظ أمَّ هشام، عندما وافق والدُها على خطبتها لأبيه، رجل فقير يعمل في توصيل خطوط السكك الحديدية، ليس لدَيه شقة وإنما سيسكن في حجرةٍ مع أمِّه وإخوته الذكور الآخرين.

تزوجتْه بالفعل في الحجرة التي عاشت بها عشر سنوات، حتى ماتت أمه وتخرج أخواه وغادرا البيت بعدما أنفق عليهما زوجها كلَّ ما كان يَجنيه، واضطرت هي للعمل لسد احتياجاتها واحتياجات طفلها، بل وساهمت في مصروف البيت مع زوجها.

كانت تعمل في مصنعٍ لتغليف الحلوى، تقف على قدمَيها عشر ساعات، وعندما تعود تطبخ وتغسل وتُرتب البيتَ، تخدم عائلةً كاملة ولا يقدم لها أحدٌ كلمة شكر واحدة، هي كانت طيبة القلب وقليلة الحيلة، لم تكن تريد من الحياة شيئًا غير رضاء زوجها.

بعد سنواتٍ صارت الشقة الصغيرة لها، انتقلت للحجرة الكبيرة التي كانت تنام بها الأم والأولاد الذكور، غيَّرت الأثاث قطعةً قطعة، وأسَّست لابنها الحجرة الصغرى التي تزوَّجَت وعاشت فيها سنوات.

عندما وصل لمرحلة التعليم الإعدادي اشترت له أريكةً من أموالٍ ادَّخرتها طيلةَ عام، وفي العام التالي اشترت مكتبًا صغيرًا وكرسيًّا ثم مِذياعًا، كانت حجرة الولد هي كل عالَمه، وكلَّما أضافت لها أمُّه قطعة أثاث أو رفًّا للملابس أو الكتب كان يفرح كأنه ملك الدنيا.

***

تزوَّج والدُه بعد شهرٍ ونصف من وفاة أمِّه، وطلب منه أن يغادر البيت بعد أسبوعين من زواجه لأنه كما قال له: أصبح رجلًا كبيرًا وعروسُ أبيه لا تأخذ راحتها في بيتها.

العروس التي قدَّمتها له زوجة أخيه الصغير — صديقة أمِّه — قالت إنها أرملة ولديها ابن مسكين مُعاق سيكسب فيه ثوابًا إذا آواهُ في بيته، الولد كان قعيدًا ولا يتكلَّم، كان مولودًا على هذه الحالة، وقال الأطباء إنه لن يُكمل الخمس سنوات لكنه عاش حتى العشرين تحملِه أمُّه وتُحمِّمُه، وتُعيده للفراش.

تمَّت الزيجة، وسار كل شيءٍ كما خطط له الأب، انتقل هشام لمسكنٍ قريب من الجامعة، وقال الرجل لنفسه إنه أدَّى واجبه نحوَه ونحو أمِّه على أكمل وجهٍ، وآن الأوان أن يهتمَّ بنفسه قليلًا.

مات ابن زوجته بعد خمسة أشهر من الزواج، أقام له عزاءً لم يُقمه لزوجته الأولى، وحزن لأجل فجيعة زوجته، وتوقَّع هشام أن يُعيده والده للبيت، لكنه لم يفتح معه الموضوع.

مما زاد غضبه وحنقه عليه..

صار يذهب لبيت والده في وقتٍ متأخِّرٍ كل شهر، ويُخبره أنه مشغول بالدراسة ولا يجد وقتًا للمجيء باكرًا، وألمح له والده أنه لن يستطيع تحمُّل مصاريف دراسته أكثر من ذلك، وطلب منه البحث عن عملٍ هذه الشهور الباقية .. وهو ما قد حدث بالفعل؛ حيث عمل نادلًا في محل بيتزا قريب من الجامعة، وتوقف عن زيارة والده أو الردِّ على مكالماته.

قال للحاجة سهير، وهو يدفع الإيجار إنه يَعتبره ميتًا، وإنه أبٌ قاسٍ، كان ينتظر يوم دفع الإيجار طيلة الشهر، ويُرتب في ذهنه الحوار الذي سيقوله للسيدة وأولادها.

كان يقف أمام المرآة الصغيرة في الحمَّام، ويرى تعابير وجهه وهو يتحدَّث عن كفاحه ومأساته.

والحقيقة أنَّ الحاجَّة كانت ذات قلبٍ كبير، تُذكره بأمِّه، وكانت تدعوه لشرب كوب شايٍ معهم عند دفعه للإيجار، تقول له ووجهُها يبتسِم اتفضل يا بني؛ فيدخل فورا، ويجلس، بينما تُنادي أمل لتضع البرَّاد على النار، ويُحيِّيه رياض ويجلس معهما، لم يكن يُحب رياض كثيرًا، والمشاعر في الحقيقة مُتبادلة بينهما، فرياض رغم صغر سنِّه يُعتبر رجلَ البيت في غياب أبيه، ويتحفَّظ كثيرًا في معاملة كل الوافدين على الحجرة وخاصةً هشام هذا، لا يعرف سببًا لذلك لكنه لا يرتاح له كثيرًا.

تُقدِّم أمل الشاي وتجلس قليلًا من باب المُجاملة، بعدما نبَّهتها والدتها في الشهور الماضية أنها تُعامِلُه بتجاهلٍ وسخافة، وقالت لها إنه مسكين وظروفه سيئة ويَجِب أن يجدَ بعض اللُّطف في هذا العالم.

تعرف أمل شدَّةَ والدتها، وأنها تتعامَل معها وأخيها باعتبارها أمًّا وأبًا ولا تسمح بأي تهاون، لكنها كانت تعرف أيضًا قلبَها الطيب وتعرِف أن هشام هذا يدقُّ لدَيها على وتر اليُتم والبؤس.

طالما وجدَتْه أمل أشبَهَ بالقاتل في رواية "العطر" لزوسكند، أو المهووس بالقِطع الصغيرة من الأجساد كما بطل مانجويل في رواية "عاشق مولع بالتفاصيل" يُذكِّرها بهما طوال الوقت بشكلٍ مُلحٍّ، ربما بسبب جسده النحيل، وعيونه المضطربة التي تطلُّ من الداخل على عالَمٍ مُظلم وكئيب.

ولكيلا يحدُث تعارضٌ بين رغبة أُمها وإحساسها هي نحوه، كانت تكتفي بالجلوس صامتة، تكتفي بابتسامةٍ حتى يُنهي كوب الشاي ويحكي عن مسيرته في العذاب، ثم ينهض مغادرًا إلى حجرته.

وأحيانًا تُصادفه في الدخول أو الخروج، فترد عليه التحيَّة أو تُحرك رأسها دون كلام.

أمل طالبة بكلية الآداب قسم التاريخ، مُستقلة وحازمة تعرف الظروف الصعبة التي تعيش فيها هي وعائلتها.

كانت تَعتبر إصرار والدَيها على تعليمها هي وأخيها منحةً كبيرة وحِملًا ثقيلًا على أكتافهما، لذلك كانت تُقدر المسئولية الكبيرة التي تتحملها، تُذاكر جيدًا وتنجح بتفوق، هي المُحبة للتاريخ ولقراءة الأدب، تُدرك النعم التي تحوطها وتُعدِّدها لنفسها في أيام الإحباط القليلة التي تمرُّ بها، بسبب قِلة المال أو عندما يتمزق حذاؤها أو يهترئ بنطالها الجينز وتضطرُّ لرتقِه في محاولاتٍ بائسة غير مُجدية.

لكنها أيام، ودائمًا ما تمرُّ؛ فقد تستقطع أمُّها جزءًا من إيجار الحجرة وتمنحه لها، أو يُرسل والدها حوالةً بنكية من البلد الذي يعمل فيه في أعمال البناء ورصف الشوارع، طالما أخبرَها عن الأيام القاسية التي يقضيها في الصحراء وسط حرارة الجو، يُوجِع قلبَها ما يَحكيه عن الحوادث التي تحدُث للعمَّال من حوله.

تذهب هي غالبًا للبنك لتقبض الأموال التي تجيء بشكلٍ غير مُنتظم، كلما وجد عملًا وتحصَّل منه على أموال، يُبقي أقل القليل لنفسه ويُرسل لهم بقيتها، تحصل على بعض ما تحتاجه، وتشتري ما تحويه قائمة البقالة والطعام التي تُعطيها لها والدتها .. فهي تعتمِد عليها هي وأخيها في كل شيء. لأنها لا تخرج للشارع إلا نادرًا في زيارات عزاء أو زيارة الطبيب، أما غير ذلك فهي تبقى في بيتها، تعتني بأولادها وتصون زوجها.

***

يفكر "هشام" كيف أن إعجاب أمل به واضحٌ جدًّا، وأن خجلها يمنعها من الحديث حتى لا تتلعثم ويفتضِح كلُّ شيء، يُفكر أنه رغم رقة حالِهم، وأنهم لا يَليقون كثيرًا بمهندس مثله سيتخرج قريبًا، ويعمل بمرتبٍ كبير ويشتري شقةً واسعة سيكون طلبُه ليَدِها صدمةً سعيدة لتلك الأسرة، ستبكي الحاجَّة سهير وتُقبِّل يدَه وجبينَه وتشكره أنه فكَّر في ابنتها، لكنه سيُربِّت على كتفها ويُخبرها أنها بمثابة أمٍّ له، وأن طلبه ليد ابنتها هي طريقته في ردِّ دَينها عليه، إنه لا ينسى أطباق الطعام الساخنة الشهية التي طالما أرسلتْها له مع رياض.

سيقول لها بتواضعٍ إن ذلك أقل ما يُمكنه تقديمه لهم، بينما تسقط أمل مغشيًّا عليها من السعادة، وسيُهرع رياض للشارع ليشتري الحلوى والعصائر احتفالًا بالخطيب العظيم الذي تكرَّم عليهم وخطب ابنتهم.

فكر أيضًا أنه لن يُحرجهم، ويسأل عن أبيها، فهو غير مقتنع أنه موجود في بلدٍ آخر يعمل ويُرسِل لهم النقود، من يفعل ذلك في هذا الزمان، ربما طلَّق أُمَّهم وهجرهم منذ زمن، ويُشيعون هم هذه الحكاية حتى لا يطمع بهم أحد، لأن الحياة أصبحت سيئة، ابتسم وقال لنفسه: إن عليهم ألا يَخْشَوا بعد ذلك من الناس أو من الحياة لأنه سيُصبح رجل البيت وسيعتني بهم جميعًا.

تخرَّج هشام أخيرًا، ووجد عملًا بعد شهرٍ في بلدةٍ بعيدة قليلًا، جمع حقيبتَه وكُتبه، وودَّع الحاجة سهير وداعًا حميميًّا، حتى كاد أن يبكي لكنه تماسك.

لم يُصادف أمل ولا رياض في تلك اللحظة .. مرَّ أكثر من خمسة أعوام حتى استطاع هشام أن يعود مرةً أخرى للمكان، أخيرًا تم نقلُه لفرع الشركة في بلدته تلك.

استلم الشقة الصغيرة التي حجزها منذ ثلاثة أعوام في مشروعٍ حكومي بمنطقة نائية، لكنها لحُسن الحظ قريبة من عمله، وفي ليلته الأولى التي قضاها في الشقة، عرف أنه آن الأوان ليُنفذ الخطوة التي طالما أجَّلها حتى تتحسَّن ظروفه ويستعدَّ لها وهو الزواج من أمل؛ عرفانًا بجميل والدتها وتسديدًا لدَينه نحو هذه العائلة التي احتضنته في فترة صعبة من حياته.

ذهب للبيت المُهترئ، وجدَه قائمًا كما هو، صعد السلالم، وشعر بالغباء لأنه لم يحضر معه فاكهة أو حلوى فهو في النهاية العريس المُرتقب.

وجد باب شقة الحاجَّة كما هو، لكنه لم يجد أثرًا لباب حجرته، بل حائطًا من الطوب مبنيًّا، فكَّر أن الحياة سيئة وربما جاء مُستأجر بعده وتسبَّب في فوضى ما، وأن الجيران ربما تقدَّموا بشكوى ضدَّهم، مما اضطرهم لغلق الحجرة وإعادتها لداخل الشقة.

وضع يدَه على جرس الباب واستعدَّ بابتسامةٍ كبيرة، وربما حُضن إذا ما فتح له الباب الصغير رياض.

فتح رجلٌ ضخم الباب، يسرح الشيب قليلًا في شعره، يبدو في منتصف الخمسينيا. تجهَّم الرجل عندما رآه وسأله عن هويته، وماذا يريد!

وقف لحظةً صامتًا، ربما يجيء العون من الداخل مُتمثلًا في الحاجَّة سهير أو أمل أو حتى رياض، لكن لم يظهر أحد غير الرجل، تلعثم وسأله عن اسمٍ ارتجلَه، وأخبره الرجل بخشونة أن العنوان خاطئ وليس هناك أحد بهذا الاسم، شكرَه واعتذر وغادر البيت مسرعًا.

في الليل فكَّر في كل الاحتمالات، هل كان ذلك هو الأب فعلًا! أم هل غادرت الحاجَّة وعائلتها البيت، لامَ نفسه على تقصيره معهم طوال تلك الفترة وأنه لم يذهب لزيارتهم مرةً واحدة طوال تلك السنوات.

حزن لأنه لم يستطع ردَّ الدَّين القديم، ولم يتمكن من الاعتناء بالحاجة سهير وعائلتها. وقال لنفسه إنه ربما لم يكن مقدرًا له تلك التضحية التي كان ينوي القيام بها وأنه سيجد غدًا بنتًا من مستواه تفرح أيضًا بكونه مهندسًا ولدَيه شقة في منطقة جديدة ستكون راقيةً في المستقبل القريب، قال إنه في النهاية فعل كل ما بوسعه، لكن "كل شيء نصيب".

في البيت المُهترئ، وفي العام الأخير قبل وفاة الحاجَّة سهير بأزمةٍ قلبية، سكن الحجرة رجل وزوجتُه وطفل رضيع يقولون له "كيرو" وهو اسم تدليل لكمال أو كرولوس لم يهتمَّ أحد

بالتأكد، جاء الزوجان من قريةٍ صغيرة بعدما ازدادت خلافات الزوج مع أهل زوجته بسبب الالتزامات التي لم يفِ بها بعد الزواج، فهو لم يوفِّر لها بيتًا كما وعدهم، واكتشفوا أن عمله في الوحدة الصحية كان عامل نظافة باليومية وليس طبيب أشعة كما قال.

لم يستطع أهلُها فعل أي شيءٍ لأنها أصبحت حامًلا، لكنه اضطر لحمل الطفل وزوجته والرحيل من القرية الصغيرة التي جاءها غريبًا قبل عامَين، أخبر عائلة زوجته أنه وجد عملًا مناسبًا في مدينةٍ كبيرة وأنه اشترى بيتًا، وعندما وصلا للمكان أخبر زوجته التي لم يمرَّ على ولادتها سوى شهرٍ أنَّ استلام العمل والبيت سيحتاج بعض الوقت، واستأجر الحجرة من الحاجَّة سهير، والتي تمزَّق قلبها الرقيق على البنت العروس وطفلها، لأنها اكتشفت بعد أيامٍ من تأجيرها للحجرة لهم أن زوج الفتاة مُحتال.

انتهت تلك الحكاية العجيبة بأن وقعت البنت العروس من طولها فاقدة الوعي، وصرخ زوجها ولمَّ البيت حولهم، وعندما استفسرت الحاجة عما حدث، عرفت أنها لم تأكل منذ يومَين، أحضرت لها طعامًا وأطعمتها بيدها، بعدها بيومٍ فاجأها أبو كيرو طالبًا استرداد مبلغ التأمين والإيجار لأنهما سيعودان للقرية.

لكنها فوجئت أنه هرب وتركَها مع طفلِها، مما اضطر الحاجة سهير لإرسال أمل ورياض لتوصيلها للمحطة لتعود لبيت أهلها بعدما أعطتْها مبلغًا من المال في يدِها.

والحقيقة أن الحاجَّة تنفَّست الصعداء بنهاية القصة عند هذا الحد، وبمغادرتهم قبل أن تموت البنت في بيتها، وقررت أن تتوقف عن تأجير الحجرة وإعادتها لشقتها خصوصًا أن أمل كانت قد تخرجت مُعيدة بكليتها ووصل أخوها للسنة النهائية في التعليم التجاري ووجد زوجها عملًا ثابتًا في غربته يُرسل منه مبلغًا معقولًا، والأمور أصبحت أفضل نوعًا ما، عندما تُوفيت الحاجة بعدها بشهورٍ قليلة، لم يجد الأب بدًّا من العودة للاعتناء بأبنائه .. حيث عاش الثلاثة في ظلِّ البيت الذي حافظت عليه تلك السيدة الطيبة متماسكًا ودافئًا رغم كل ما مرَّ عليهم.

المنارة

تفوح من البيت رائحة الحلبة، ربما تزرعها في شرفتها مع أصنافٍ أخرى تمتلئ بها الجِرار الفخارية، ربما تُقدمها كمشروب وحيد في البيت الذي تعيش فيه مع زوجها الهادئ والبنت والولد.

حيث لا تخرج من بيتها، إلا للضرورة، ولا يزورها أحد إلا نادرًا..

لكنها مع ذلك لها علاقات وصداقات مُمتدة بسيدتَين منذ الطفولة، وزوجتَي أخويها، وجارة مُسنة كانت صديقة لأمها .. تدير السيدة علاقاتها كلها بالتليفون الأرضي رغم توقف الجميع عن استخدامه، وبقائه في البيوت تقريبًا بسبب وصلة الإنترنت، لكنها تستخدمه نصف ساعات النهار، تفضله عن الهاتف الجوال الذي ترفض حتى الآن اقتناءه.

تستيقظ في الصباح الباكر، تشرف بنفسها على استعداد زوجها للذهاب لعمله، وتصفف شعر البنت الطويل قبل ذهابها للجامعة، وتطعم الولد في فمه وتُرتب حقيبة مدرسته رغم أنه أصبح أطول منها قليلًا؛ في السنة النهائية من التعليم قبل الجامعي.

تشعر بزهوٍ أنها تقوم بكل شيء لهم، تقول بينها وبين نفسها إنهم لا يستطيعون المضيَّ خطوةً واحدة دون إرشاداتها وعلاماتها على الطريق، فهي كالمنارة لهذا البيت.

تُدير كل شيء وتطمئن على الجميع ثم تعود للنوم، بعد الظهر بقليل تستيقظ، لتُلمع الأثاث الذي تُغطيه الأتربة كل يوم، وكأن البيت مهجور منذ سنوات، تُرجع ذلك لأن الشقة الكبيرة التي ورثتها عن أمِّها تقع على شارعٍ رئيسي مُمتلئ بالغبار والسيارات والباصات العملاقة التي تمرُّ لتنقل الموظفين والعمال للمصانع التي تقع على حافة المنطقة التي تسكنها.

تتمشى في طرقةِ بيتها بابتسامة واسعة، وشعورٍ حقيقي بالسعادة؛ إنها لا تريد من الحياة أكثر من هذه الجدران، لا شيء في العالم خارج شرفتها يستحق أن يشغلها.

تتناول فطورها على مهَل؛ بيضة مسلوقة أو مقلية وربع رغيف من الخبز، كوبًا من الشاي بالحليب، ثم تنتقل لحجرة الصالون، حيث كنزها الأثير، تشعل سيجارتها الأولى وترشف على مهلٍ من فنجان قهوتها، يستغرق الأمر نصف ساعة على الأقل، ثم تجري مكالمةً لواحدٍ من الأرقام الخمسة التي تملكها الصديقتان أو زوجات الإخوة أو السيدة العجوز جارة أمِّها.

قد تتصل بالبنت لتطمئنَّ على ميعاد عودتها، وقد تُهاتف زوجها لتطمئن على صحته، وتتأكد من تناوله لدوائه فهو مريض بالقلب، أصابه ذلك الداء منذ خمسة أعوام، قال الطبيب إنه ورث شرايينه المُتعَبة من والده، والحقيقة أنه لولا الوراثة ما اقترب منه داء مثل ذلك، فهو رجل هادئ لا تسمع صوته ولا رأيه في نقاشٍ ما إلا همهمة، لا يُدخن ولا يتابع كرة القدم.

تترك الهاتف قليلًا، تضع الملابس المتسخة في الغسالة، عندما تنهي دورتها، تُبقي الملابس داخلها حتى المساء؛ حيث يُخرج زوجها محتوياتها ويضعها على أحبال الغسيل في الشرفة، قبل أن يعود لجمعها في الصباح ووضعها على الأريكة في حجرة الصالون جوار الهاتف، حيث تطويها هي فيما بعدُ أثناء إجرائها لإحدى مكالماتها الهاتفية الطويلة، تقف قليلًا جوار الغسالة لتسمع صوت دورانها، وتتأكد أن كل شيءٍ على ما يُرام ثم تعود للصالون حيث تقضي ساعةً أخرى جوار الهاتف، قبل أن تتَّجِه للمطبخ لتُجهز الغداء، يَمتلئ البيت الكبير الساكن بالحياة طيلة ساعتَين بعد الغداء، يقصُّ عليها كل واحدٍ منهم شيئًا مما حدث في يومه، تغسل الصحون، ويقف زوجها جوارها ليُنشفها ويرصَّها.

ثم يسود صمت، يأخذ الزوج قيلولة تنتهي في الثامنة مساء، يستيقظ بعدها ليحتسي الحلبة مع زوجته ثم يأخذ الجريدة وبعض أوراق العمل وينزوي في الصالة حتى ميعاد النوم، بينما يدخل الولد والبنت كلٌّ لحجرته — لعالَمه — لا يظهر إلَّا في المساء طلبًا لساندويتش أو عصير.

إذا ما اقتربت من حجرة أحدهما، يتململ ويطلُب منها الخروج لرغبته في النوم أو مواصلة المذاكرة أو حتى محادثة أصدقائه، تعود هي لجلستها جوار هاتف البيت، تُهاتف أحد الأرقام الخمسة التي تحفظها، تقضي ساعات في المكالمة الواحدة .. تحاول بعضهنَّ تسريع وتيرة المكالمة أو التملُّص من حكاياتها التي لا تنتهي، خاصةً زوجات الأخ، يتعلَّلنَ دائمًا بالانشغال بالأولاد، وضيق الحال وصعوبة طباع إخوتها.

تتقبل كل ذلك بحُسن نية وتُشيد بإخوتها وتربيتهم، أو تسأل عن تفاصيل المشكلات ربما أمكنها التدخُّل وحلها باعتبارها الأخت الكبرى، صحيح أن الأخوين لا يسألان عنها، وربما صرَّحا لها أكثر من مرةٍ أنهم غاضبون منها، وغير راضين عن توزيع أمِّهم للميراث بينهم، لكنها تقول لهم إن الأُخوَّة أهم من المال وأنها لم تلتزم بوصية الأم وتركت لهما محلَّ البقالة الكبير

حيث يُديرانه ويحصلان على إيراده كلِّه والمنزل حيث أخذ كلٌّ شقيقٍ منهما نصفه، سكن في شقةٍ وباع شقتَين، ماذا يريدان منها أكثر من ذلك!

لكنها لا تتلقَّى ردًّا واضحًا، فقط غضب مكتوم وهمهمة.

في الأعياد، ترتدي ملابس أنيقة وغالية لكنها غالبًا قديمة الطراز، وربما ضاقت قليلًا عليها؛ فهي لا تخرج، ولم تعُد تعرف المحلَّات التي يمكن أن تناسب ذوقها الراقي في الملابس. هي التي يفصلها عن الخمسين عامان، تعيش وسط الأشياء القيمة القديمة، حتى إنها لم تغير كرسيًّا عندما تزوَّجت في شقة أمها التي أسستها وعاشت بها آخر أيامها، بعدما انفصلت عن زوجها؛ تركت له الولدين والبيت والتجارة التي كانت تملكها، وأخذت البنت وعاشت من مُدَّخراتٍ ورِثَتْها عن أبيها، ونقلتها بعد ذلك لابنتها لتعيش مستورة ولا تحتاج لأحدٍ، خاصةً أباها وإخوتها، خصوصًا أن البنت توقفت عن التعليم قبل الحصول على شهادةٍ متوسطة حتى؛ فهي لم تكن تُحب الدراسة. شددت عليها الأم أن تتسلَّم ميراثها كاملًا بعد وفاتها وتأخذ البيت والمحل الكبير، فأخواها جاحدان مثل أبيهم ويُمكنهم تدبُّر أمورهم، لكن السيدة لم تُنفذ وصية أمِّها وتركت كل شيء على حاله، لأنها كما تقول دائمًا الأخوَّة أهم من المال.

***

في الأعياد تذهب لزيارة البيت، تقابل زوجات الإخوة والأولاد وتمنح عيديَّات سخية للأولاد، لكنها نادرًا ما تصادف أحدًا من إخوتها، الذين يغادرون قبل مجيئها، ولأنها ابنة أصول لا يمكنها أن تزور أحدًا قبل أن تُبلغه، لأن ذلك من قواعد اللياقة، وبسبب تمسُّكها بهذه القواعد لم ترَ إخوتها منذ سنوات.

عندما تعود لشقتها، ترقُد يومَين في إعياء، تقول لصديقتها "سعاد" كيف أن الشارع تحول لسيرك وأن البشر صاروا مُخيفين، ولولا رفض أولادها الذهاب معها لزيارة العيد واعتلال صحَّة زوجها وعدم قُدرته على صعود سلالم البيت القديم العالية تلك لَما خرجَتْ وحدَها، لكنها زيارة واجبة ولا يمكن أن تتوقَّف عنها، والحقيقة أنها بعد عامَين توقفت عن هذه الزيارة لأن إخوتها انقضُّوا عليها في الزيارة الأخيرة وحصلوا منها على توقيعٍ ينقل لهم ملكية العمارة والمحل الكبير، لم تحكِ لزوجها، ولم تلجأ للشرطة أو لمحامٍ لبطلان العقد، وعندما

سألها زوجها عن الكدمات في يدِها ووجهها أخبرته أنها وقعت وسُحلت على الأرض وهي تنزل من التاكسي أمام العمارة، وأكدت أنها لن تخرج من البيت مرةً أخرى.

حكت فقط لصديقتها سعاد لأنها كانت بمثابة أخت، حكت وهي جالسة في ظلام حجرة الصالون المُقبض، وبكت كما لم تبكِ إلَّا يوم وفاة أمها.

جرَّبَت الاتصال على الهاتف الأرضي بزوجات الإخوة، لا لشيءٍ إلا لتطمئن على الأولاد والأحوال وربما تلمُّسًا لكلمة اعتذارٍ أو عزاء، لكن الأرقام كانت قد تغيرت. كان من الممكن أن تحصل على الأرقام الجديدة بسهولة، لكن كرامتها منعَتها من البحث أو السؤال.

لم تُقابل صديقتَيها الوحيدتَين هند وسعاد منذ عشرين عامًا، إلا مرات قليلة، في عيد الميلاد الأول لبنت سعاد وعزاء والدة هند، أو زفاف أخيها الأوسط، وعقيقة أخيها الأصغر، فجميعهم كانوا جيرانًا وتربَّوا في حيٍّ واحد، لكنها حريصة على مهاتفة كل واحدة يوميًّا أو على الأقل أربع مرات في الأسبوع، اتفقنَ كثيرًا على ترتيب موعد للخروج أو للزيارة، لكنه لم يتحقق؛ الثلاثة لديهنَّ ظروف ويسكنَّ بعيدًا، وفي النهاية سافرت هند مع زوجها لبلد أجنبي واستقرت هناك وانقطعت أخبارها، بينما مرضت سعاد بمرضٍ عضال، كانت حالتها خطيرة وفي أيامها الأخيرة، وهي على فراشها وجدت أمامها صديقتَها بملابسها الراقية الأنيقة غير المناسبة للعصر، جلست جوارها على الفراش، بكت كلٌّ منهما وتذكَّرا كل شيءٍ منذ الطفولة، حتى الأغنيات التي ردَّدنَها وهنَّ يلعبنَ على سُلم البيت الذي باعته لإخوتها دون وجه حق، كان البيت الأكبر والأرقى في الحي تملكه أمُّها الثرية التي تزوجت من مساعد أبيها في محلِّ الأقمشة الكبير.

وبعد وفاة أبيها أقنعها زوجها أن تُحول المحل لبيع البقالة والسلع المعلبة المستوردة، بعدما أنجبت البنت والولدين وصاروا شبابًا، تزوج الرجل عليها خادمتها في السر وعندما عرفت تركت له كل شيء وغادرت.

عاش مع الخادمة حتى تُوفي، ثم لحقتْه زوجته الثانية بعدها بعام، لم تذهب للعزاء أو تدخل البيت بقدمِها مرة أخرى. الولدان عاشا مع أبيهما لأنهما رفضا الذهاب مع الأم، بل وجدا أن تصرُّف الأب ليس فيه ما يشين ومن حقِّهِ أن يتزوج.

كانت فكرة أن أمَّهما صاحبة المال تُثير حفيظتهم وتؤذي رجولتهم المزعومة، لذا فرحيلها وغيابها عن الأنظار أراح الجميع، خاصةً بعدما أشاعوا أن والدهم اشترى منها البيت والمحل.

كانت السيدة نسخة من أمها، جميلة ومحطَّ أنظار الرجال، كما كانت أقل تحفظًا من أمها، تقول لها سعاد وهي على فراش المرض إنها تتذكَّر كل الأولاد الذين خرجت معهم، بينما قالت السيدة وعيناها مُمتلئة بدموع الذكريات: كل أصدقاء إخوتي الصغار. وأكملت حتى تزوَّجتُ صديق أخي الأصغر. صحَّحَت لها سعاد: الذي كان صديقه، فقد تشاجر معه واتهمَه بالطمع في ميراثها وشقتها. شعرت السيدة بالأسى وقالت إن ما أحزنها ليس خلاف أخيها مع صديقه المُقرب، ولكنَّ إصرار أخيها أنها لا يمكن أن تجد الحُب الحقيقي وأن شخصيتها ليس فيها شيء يمكن أن يجذب أحدًا، وحدها الأموال هي ما تُقرِّب لي الناس .

لكن صديقتها خففت عنها، وأخبرتها أنها كانت أرقى وأجمل بنتٍ في الحي.

ضحِكا معًا واحتضنت كل منهما الأخرى وهما تتذكَّران كل الحِيَل والمغامرات التي قامتا بها في شبابهما، الحفلات التي حضراها، والرحلات وكل المرح في شبابهما المبكر، لكن أيًّا منهما لم تستغرب التحوُّل الذي حدث لهما ولحياتهما، وكأن كل مرحلة تمنح القلب شيئًا غامضًا يبقى أو يتبخر، لكنه يُصبح جزءًا من الروح. في اليوم التالي اتصلت ابنة سعاد بها، وأخبرتها أن أمَّها طلبت أن تُحضر هي الكفن لها، كانت البنت تبكي بمرارة، بعد ساعة كانت السيدة في بيت صديقتها ومعها الكفن.

عندما انتهى كل شيء، عادت السيدة للصالون، جرَّبَت أن تُمسك الهاتف لكنها تذكَّرت أن هند سافرت وسعاد ماتت وبدَّل أخواها أرقام هواتفهما كي لا تصل لهما، وأصبح سمعُ الجارةِ صديقةِ أمِّها ضعيفًا ولا يمكنها إجراء مكالمة تستغرق حتى دقيقة.

نهضت من على كرسيها ووصلت حتى باب غرفة الصالون، وقفت تُحدق فيها، ثم سحبت الباب وأغلقتْهُ خلفها .. قضت عدة أيامٍ صامتة لا تقوم بروتينها اليومي.

لكن نظام البيت ظلَّ كما هو، يستيقظ الجميع ويُغادرون ويعودون، فيشتري أبوهم الغداء، يتناولونه على عجلٍ ويغيب كلٌّ منهم في عالمه.

أزعجها قليلًا أن تمضي الأمور في غيابها وراء حُزنها بهذه السلاسة، وفكرت كيف يمكن للسفن أن تسير بلا هُدًى في ليلٍ بلا منارة، حتمًا ستتعرض لحوادث أو تغرق، وهي لن

تحتمِل مثل هذه الخسارة، فقررت أن تُنهي ذلك كله، وفي الصباح التالي نهضت معهم وحضَّرت الإفطار لزوجها وصفَّفت شعر ابنتها ووضعت الطعام في فم ابنها، وهي الأمور التي كان يحتملها الثلاثة على مضض حتى لا يجرح أحدهم مشاعرها ويُخبرها أنه يُمكنه الاعتناء بنفسه، خصوصًا زوجها الذي يحمل لها في قلبه مشاعر الامتنان لأنها تحدَّتِ الجميع وتزوجته هو الفقير اليتيم الذي لا يملك شيئًا من الدنيا سوى شهادة جامعية وعملٍ كان قد تعيَّن فيه حديثًا، وظلت جواره حتى صار مديرًا في شركته.

عندما غادروا جميعًا عادت لنومها، ثم استيقظت قُرب الظهر، بعدما مسحت الأتربة من فوق الأثاث، ووضعت الملابس المُتسخة في الغسالة، وجهزت فطورًا لم تمسَّه، وبينما تتمشى في طرقة بيتها اتسعت ابتسامتها وغمرها شعور حقيقي بالسعادة، وفكرت أنها لا تريد من الحياة أكثر من هذه الجدران.

أخرجت مصباحًا يدويًّا من أحد أدراج المطبخ وأشعلته ثم مضت في البيت رافعة المصباح تجاه السقف، وهي تُردِّد لنفسها إنها المنارة.

زوج وزوجة

تناولت مفكرتها الحمراء الصغيرة التي تضعُها في رفِّ المطبخ العلوي المفتوح المُخصَّص لعُلب التوابل ونقلت، من صفحة متخصصة في الطهي اعتادت متابعتها على تليفونها المحمول، الوصفةَ التي كانت بعنوان "خمسة مشروبات منزلية الصنع لتخسيس الأرداف"، وتلتْها بوصفة بعنوان "طريقة مذهلة لتحضير البشاميل الجاهز دون تعب في خمس دقائق فقط"، ثم وصفة "بيتزا الطاسة الرائعة دون فرن ولا عجن"، ثم "أسرار عمل البسبوسة الطرية الهشة في عشر دقائق" وأنهت وصفات اليوم بطريقة الدجاج المشوي في الفرن بمقادير بسيطة مثل المطاعم.

تركت الهاتف لحظةً وأعادت المفكرة الحمراء لمكانها، ثم عادت لتصفح الإنترنت، وصلت لصفحة الحوادث والتي اختلطت فيها الحوادث مؤخرًا بأخبار المشاهير، فأصبحت تنشُر أخبار وفياتهم والمبالغ الخيالية التي تركوها لأبنائهم أو تصريحات لذويهم بعدم وجود كسرة خبزٍ في البيت، إذا كان الفنان صاحب أدوارٍ صغيرة وحظ قليل، تنشر أيضًا أخبار الخيانات الزوجية المُحققة والمتوقَّعة، الطلاق المُحتمل والزيجات التي دائمًا ما تبدأ بتكذيب الشائعات ثم تنتهي بصور في المالديف لليالي العسل.

العمليات الجراحية الخاطئة، الحديث حول مضاعفات خطيرة وتدهور لصحة الفنانة والتكتم الشديد على الأسباب والتي ترجع معظمها لعمليات التجميل والتنحيف. الأسرار الخفية وراء إضراب أحدهم عن الزواج، أو الفشل المتكرر لفنانة تزوَّجت أربع مرات في العام الأخير، لأنها لم تجد وسط كل أزواجها من يفهمها ويحنو عليها.

مرَّت ساعتان أو أكثر وهي تنتقل من خبرٍ لآخر، وتتصفح قصة وتقرأ تفاصيل قصة أخرى، يُترَك لها رابط في نهاية الصفحة بعنوان قصص مشابهة.

ترفع رأسها نحو الساعة المُعلقة في صالة البيت لتتأكَّد أن الوقت لم يسرقها، وما زال لدَيها وقت لشُرب الشاي بالحليب وتناول سندوتش جبنة بيضاء، وتناول دوائها، ثم إعداد الغداء قبل عودة زوجها (مهمة إعداد الطعام هي الأكثر سخافةً وصعوبة مما تُضطرُّ لمواجهته في زواجها كله).

تُخرج من الفريزر قطعة لحم أو فراخ أو سمك مَخليَّة كما تُفضلها دائمًا، وتصنع في حلة واحدة صنفًا تضع فيه كل شيء؛ الأرز والخضراوات وصنف اللحم، بلا أي تجديدٍ وبمللٍ واضح، حتى إنها تضبط نفسها تزفر أكثر من مرةٍ وهي تغسل إناءً أو كوبًا أو ملعقة.

عندما تُنهي حلة الطعام تُغلق نور المطبخ وتعود لجلستها فوق الأريكية تتناول هاتفها وتتصفح المزيد من الصفحات والأخبار.

تجلس في مكانٍ واحدٍ لا تُغيره فوق الأريكة الحمراء، هناك حيث تسقط داخل فجوةٍ غائرة، رغم أن الأثاث ليس بهذا القِدَم، لكن حفرة هابطة في إسفنج الأريكة تُخبرك أين تقضي "هيام" ساعاتها وأيامها، بجوارها حقيبة من الكتَّان البيج، حصلت عليها عند ما اشترت منتجًا ما من تسوُّقها عبر الإنترنت، كان ملفوفًا بها حذاءٌ طبيٌّ لقَدمِها حتى لا تُصاب بمضاعفاتٍ لمرض السكري الذي أصابها بعد شهورٍ قليلة من زواجها، فرحت بالحقيبة الكتَّان أكثر من فرحتها بالحذاء، وضعت فيها كل أنواع الأدوية التي تتناولها؛ أدوية السكر والفيتامينات الخاصة بالأعصاب والعظام وأغشية العين، وأدوية لتحافظ على ضغطها الذي يرتفع دائمًا بلا سبب ممَّا قد يؤثر على قلبها وتزيد احتمالات الجلطات والإصابات الأخرى بسبب مرض السكري، في الحقيبة أيضًا أدوية الدهون الثلاثية والكولسترول، مُسكنات وباسط للعضلات.

ومؤخرًا صارت تتناول مع كل ذلك أدوية السيولة وفيتامينات الكالسيوم و المُكملات الغذائية ليستطيع الصغير داخل رحمِها أن يحتمِل كل تلك العقاقير ويصمد دون تشوُّهات خلقية أو مشاكل معروفة لمريضات السكر أثناء الحمل.

وصلت "هيام" للعشرين منذ أسابيع، لكنك ما إن تراها وهي تمضي في البيت من حجرةٍ لحجرة كالتائهة حتى تمنحها ثلاثين عامًا فوق عمرها بيقينٍ وضميرٍ مرتاح.

كانت في العام الأخير في المدرسة الثانوية التجارية عندما لمحها " عادل " وهي تعبر الطريق لتدخُل بيتًا متهالكًا، يقع أمام بيت حبيبته التي تركته وتزوَّجت برجلٍ آخر، رغم تعاهُدهما على الزواج لم تستطيع أن تنتظره عامَين حتى يتخرج من كلية التجارة ويجد عملًا ويذهب لخطبتها.

كان الجرح كبيرًا لكرامته ولقلبه، وبحكم أن بيت حبيبته يقع في أول الشارع الذي يقطنه هو وأبوه وأمه، فقد كان لزامًا عليه أن يعبُر من أمام فجيعته كل يوم. في الأيام الأولى كان يتجنَّب النظر للبيت، يتظاهر بعدم وجوده، لكن بعد مرور الشهور جرفَه الحنين فكان يتلكَّأ كلما مرَّ من هناك، رآها في العام الأول بعد زواجها ثلاث مرات، في المرة الأخيرة كان بطنها مُنتفخا بحياة، في العام الثاني كان مشهد جلوسها في شرفة بيت أهلها عاديًّا ومكررًا مرتَين أو ثلاثة في الشهر، وفي النهاية أصبح يعرف مواعيد قدومها لبيت أهلها فيعبر ويتلكأ قليلًا يراها وهو قادم من بعيد، لكنه لا يرفع عينَيه نحوَها أبدًا، فهي في عصمة رجل، وهو لا يعتدي أبدًا على حرمة البيوت.

لكنه في إحدى مرات تلكؤه أمام البيت رأي "هيام" تعبر داخل البيت الآخر مُرتديةً زي المدرسة وضامَّة لصدرِها محفظةً بلاستيكية كبيرة بها كتب وكراسات.

لم تفكر "هيام" أنها ستتزوَّج بدلًا من دخولها الجامعة، كانت تحلم أن تكون فتاة جامعية مثل إخوتها الذكور الثلاثة، لتتخلَّص من سخافة مُعايرتها بأنها لم تتمكن من دخول الثانوي العام لضعف مجموعها، إذا حصلت على مجموعٍ كبير يُؤهلها للجامعة فلن ينعتَها إخوتها بالغبيَّة أو المُتخلّفِة كما اعتادوا دائمًا، هي لم تعرفْ أن اتفاقًا ضمنيًّا قد حدث بينهم، لأنها إذا حدثت المعجزة ودخلت الجامعة فسيُخبرونها بأنها لم تدخلها من الباب الرسمي وإنما بالتحايل، وهي بالطبع ستبقى أقل منهم في الذكاء.

كانت "هيام" تتلقَّى معاملةً سيئة على يد الجميع، كان أيٌّ من إخوتها الرجال يحق له أن يضربها بشدة لأي سبب، إذا لمح جزءًا من شعرها خارجًا من حجابها الذي ارتدته دون رضاها وفي سنٍّ مبكرة جدًّا حتى لا تنحرف وتجلب لهم العار، كان أخوها الأكبر يُفتش في أدراجها بحثًا عن أحمر شفاه أو كحل أو أي شيءٍ مما هو محظور عليها استخدامه، وكان الآخر يفتش عن خطاباتٍ أو أي أوراقٍ بها أبيات شِعر أو كلمات أغنيات كما حدث من قبل في بداية عامِها الأول في الثانوي؛ حيث ضربها ضربًا مبرحًا بيدَيه وقدمَيه حتى كاد أن يكسر أحد أضلُعها، ذلك الضلع الذي يؤلِمها دومًا إذا تحركت بأيِّ شكلٍ فيه انحناء شديد إلى الأمام

.

أقسمت له وقتَها أن صديقةً لها كتبت هذه الكلمات عندما أخبرتها "هيام" أن أغنية "أمل حياتي" لأم كلثوم تُعجبها جدًّا لكنها لا تسمعها إلا صدفةً في مذياع أبيها ولا تعرفها كاملة.

لم تسمع "هيام" أغنياتٍ بعدَها ولفترة طويلة، ربما كانت المرة الأولى التي تدير فيها المذياع لتدندن مع موسيقى كان في بيت "عادل" عندما تزوَّجا بعد تلك الواقعة بأربع سنوات. لكن "عادل" أخبرَها أنه لا يُفضل تشغيل الأغاني في البيت، وإنما يُمكنها أن تدير إذاعة القرآن أو تستمع للبرامج الهادفة عن الطب أو السياسة؛ الأمور المُفيدة التي قد تُغذي عقلها وتجعلها سيدة بيت ناجحةً وقادرة على إدارة حياتهما الجديدة.

لم تُصَب "هيام" بإحباطٍ ولم تُحاول حتى مناقشته، أغلقت الموسيقى التي صارت تُسبِّب لها دوارًا وصداعًا شديدًا بعد ذلك.

***

تخرَّج "عادل" بتقدير متوسط، وعمِل في مكتبٍ لأعمال المحاسبة بمُرتب متوسط، لكن والدته وأباه اللذين يعملان في مجال التدريس كانا قد اشترَيا له شقةً قريبة من الحي الذي يعيشان فيه وظلَّا يدفعان أقساطها حتى أصبحت ملكهما، كانت الأم تقول إنه ابنهما الوحيد ويجب أن يعيش بالقُرب منهما ليسأل عليهما في كبرهما، وكان أبوه يقول ليت لدَينا أكثر لأعطيناه له عن طيب خاطر.

فرحت أمُّه عندما فاتحها في رغبته بالزواج من "هيام" لأن ذلك يعني أن جرح قلبه قد التأم، رتَّبا كل شيء هي وأبوه وذهبا لخطبتها، أنهت العائلتان الاتفاق سريعًا دون أن يسأل أحد "هيام" عن رأيها، كان والدها قد تعدى السبعين عندما تمَّت خطبتها؛ موظفًا بالمعاش بهيئة النقل العام.

اتفق والدُها أن يُجهزها جهازًا بسيطًا والذي هو بعض الأواني والأطباق وملابس البيت وعدة فساتين أصبحت على أرض الواقع فستانين أحدهما أزرق والآخر أخضر، وأضاف أنه لن يستطيع أن يشارك في الأثاث أو الأجهزة الكهربية لضيق الحال، وافق أهل "عادل" على ذلك وفي المُقابل تملَّصوا من تقديم شبكةٍ واكتفَوا بخاتم خطبة صغير، واشتروا حجرة النوم وأثاث البيت من أحد أسواق الأثاث المُستعمل، دون أن تحضُر العروسة أو أهلها لاختيار شيء، وأهل العروس لم يُمانعوا في ذلك، وعندما اعترضت "هيام" على ذلك لقَّنها أخوها

الأوسط درسًا قاسيًا بضربها بحزامِه الجلدي حتى تورَّم جسدها، قبل أن ينهرها قائلًا إنها يجب أن تظهر بمظهر البنت مُمتلئة العين، التي خرجت من بيت أصل، لا أن تُظهر تدنّيها بالحديث عن الأثاث المُستعمل أو غيره، بينما علَّق أخوها الأصغر مُستهزئًا أن الأمر تمَّ قدْر إمكانات العريس وأهله، وقالت الأم بحيادية إن تمام الزيجة بهذه الطريقة فضل ونعمة من الله، فنحن لم ندفع أبيض ولا أسود فيها، بل وتخلَّصنا من مسئولية البنت التي كان من المُمكن أن تُلحق بنا العار لولا أراد الله سترها وسترنا.

كان غريبًا أن يشغل كل أفراد عائلتها أمرُ أن تُلحق "هيام" العار بهم، خصوصًا أنها طيلة حياتها هادئة ولطيفة ولم تتصنَّع المشكلات، ولم تُطالب بشيء، كانت تقضي يومَها كله على أمَل أن تبدو غير مرئية ولا يطولها ضربٌ أو سباب من أحدهم، تلك الأمنية التي نادرًا ما تحقَّقت طوال أيامها في البيت المتهالك الذي عاشت فيه مع أهلها.

لم يكن لعادل أي تجارب قبل ليلة الزفاف، والحقيقة أنه كان عنيفًا وفظًّا مع البنت، بدافع ارتباكه وقلَّة خبرتِه، لكنه تحسَّن في الليالي التي تلت ذلك.

لم يُحب "عادل" البنت بالمعنى المعروف للحُب، لكنه وقع في غواية استدارة نهديها، وظلَّ لسنوات كلَّما سألته لماذا تزوَّجها؟ أو ما الذي يُحبه فيها! أجاب بعفوية وصدق أنه يُحبها بسبب نهدَيها وأن أكثر ما يُعجبه فيها لون بشرتها البيضاء الرائقة وارتفاع مؤخرتها. كانت تشعر في كل مرةٍ أنه ربما لم يسمع سؤالها، أو أنه لا يريد إخبارها بما أعجبَه فيها حقًّا حتى لا تَمتلئ بالغرور، أو ربما أنه مثل مُعظم الرجال لا يعرف كيف يُعبر عن مشاعره، لكنه كلما كانت الإجابة متكررة وواثقة عرفت فعلًا أنه لا يُحب فيها شيئًا ولم يجذبه نحوَها إلَّا ما قال.

وتوقفت نهائيًا عن سؤاله مثل تلك الأسئلة..

لم يكن "عادل" قاسيًا في العموم، لكنه كان يُشبه السحلية في تلوُّنها، وكانت آراؤه تتغير تبعًا لتغير أصدقائه وشركاء النرجيلة في المقهى، فإذا كان الرائج في القول بينهم إنَّ الموسيقى غير مُستحبة وتعليق الصور على الحائط يجلب الفقر في البيت طبَّق ذلك، وهو يرى أنه رأيه في الأصل، وإذا صادق في أيامٍ أخرى رجالًا أكثر تفتحًا تجدِه يرى أنَّ الحياة حلوة وتستحق أن نستمتع بها وهكذا.

حتى في معاملته مع زوجته كلما رأى استكانتها تضخَّمت أفكاره بشأن الغيرة والقمع، لكنها عندما أنجبت طفلها الأول واستقرَّت أمورها وبدأت تفكر وتملي عليه الطلبات وخطوات حياتهما، تراجع للخلف بلا أي مقاومةٍ ليُنفذ أفكارها الذكية التي رأي أنها توافق ما كان يرغب في قوله.

تأخرت "هيام" في الحمل بمولودها الأول ثلاثة أعوام كاملة، لمَّح لها زوجها في العام الثاني أن الشرع يسمح له بالزواج من أخرى إذا لم تتمكَّن هي من تحقيق حلم الأبوة له؛ لمح بذلك بينما بدأ عمله يتحسَّن وينال ثقة العملاء وأصحاب العمل على حدٍّ سواء، وارتفع راتبُه كثيرًا واستقرت حالته.

لم يمنعه عن تلك الخطوة — التي فكَّر فيها جادًّا وهو يقول لنفسه إنه في النهاية لم يُحبها وإنما تزوج من أجل الاستقرار، ومن حقه أن يجدَ الحُب الذي يستحق — سوى كلمات والدتِه، جعلته يتراجَع عن الفكرة بل ويُلغيها تمامًا وللأبد، لأنها أخبرته أن كل زوجةٍ لها قدَم في حياة زوجها، وزوجته (مُرزَقة) وقدمها خير وكل ما يحدُث له من نعمةٍ وكرم بسببها، وربما يزول كلٌّ ذلك إذا أغضبها أو تنكَّر لها.

عندما جاء المولود الأول تسرَّبَت أم هيام لحياتها من جديد، ذلك أن البنت اختارت أن تستقلَّ بحياتها مع زوجها، وتكون علاقتها بأهلها في أضيق الحدود، فصارت تزورهم مرةً واحدة في العيد الصغير، تذهب مع زوجها، تجلس عندهم دقائق لا تكفي حتى لشُرب الشاي، ثم تُهرَع بالمغادرة لتزور بيت أهل زوجها، بينما لا تُفضل الذهاب في العيد الكبير، لأنها طالَما وجدت أنه عيد هادئ ومواعيد البشر فيه تختلف في النوم والاستيقاظ ولا يُمكنها أن تُحدِّد متى يكون الوقت المناسب للزيارة.

هي في الحقيقة كانت تجد حججًا حتى تُخرج أهلها من حياتها، خاصةً بعدما وهن والدها وأصيب بمرض النسيان وسافر اثنان من إخوتها للعمل بالخارج وخطب أخوها الأصغر وقرر أن يتزوَّج مع أمِّه وأبيه في البيت حتى يرعاهما ولأنه لا يُمكنه تدبير بيتٍ للزوجية.

منذ خروجها من بيت أبيها بفستان أبيض بسيط وبلا فرَح أو زفة، فقط زغرودة أطلقتها أمُّها على عجل مع آخِر خطوة لها خارج البيت بينما يتسلَّمها عريسها، شعرت أنها غريبة عن

ذلك البيت وعن هؤلاء البشر، حتى أنها تتحيَّر كثيرًا عندما تبحث لهم عن ذِكرى في عقلها — أي ذكرى — لكنها لا تجد سوى الفراغ.

جاءت الأم لترعاها في أيامها الأولى بعد الولادة، ورغم ملاحظتها الجفاء الشديد الذي تُعاملها به ابنتها، لكنها أيضًا رأت الخير والوفرة التي تعيش فيها ابنتها، فقالت لنفسها إنها من المفروض أن تشكرنا على ما فعلنا، لولا شدة إخوتها معها وقسوتها هي ما أصبحت حسنة السيرة حتى اختارها هذا الشاب للزواج، وعن مسألة الجامعة ما الذي كانت ستَجنيه بنتٌ غبية مِثلها من ذلك، وهل وجد خريجو الجامعات أعمالًا تُيسر لهم فتح بيوتٍ حتى تجد هي عملًا تعيش منه، ثم من يضمن أنها لم تكن لتنحرف إذا ذهبت للجامعة وقابلت الشباب وعادت للمنزل في مواعيد غير ثابتة، لقد فعل الله الصالح لها ولنا، وأراد أن يسترنا ويكفينا شر الفضيحة.

أكملت الأم شهرًا ونصفًا في بيت "هيام" كانت تُعد الطعام، وتحمل الرضيع، وتغسل الملابس، وكان زوج ابنتها يُعاملها بطيبةٍ ولطف بينما تتجاهلها ابنتها، وتتعامل معها في أضيق الحدود، حيث تتركها تُنهي أعمال البيت طوال اليوم بينما تبقى هي في فراشها أو تجلس في مكانها المُفضل على الأريكة.

وبينما تستعدُّ الأم على مضضٍ لمغادرة بيت ابنتها، مات الأب المُسن. بعد مراسم الدفن والعزاء، جمعت الأم ملابسها وأوصلها ابنها الصغير لبيت ابنتها، حيث اتفق "عادل" مع زوجته أن تبقى أمها عندهم تساعدها في تربية الصغير، وتجد من يُؤنسها ويُعينها على الحياة، خصوصًا أنه كان قد بدأ عملًا جديدًا، بعدما فتح مكتبه الخاص للمحاسبة، وصار عليه أن يقضيَ وقتًا أطول في العمل، كما أن عيشتها مع ابنتها أفضل كثيرًا من الحياة مع زوجة ابنها الجديدة، التي ستجيء بعد أربعين الأب.

فكرت "هيام" أن لها حقًّا عند أُمها ويمكنها الحصول عليه الآن، وفي المُقابل ستوفر لها حياة أفضل كثيرًا مما يُمكنها أن تعيشها بمعاش والدها الصغير.

بقِيت أم هيام لدَيها عشر سنوات حتى كبر الولد الأول وصارت البنت الثانية في الثامنة ودخل التوءمان المدرسة في سنِّ السادسة، ثم حدثت المشاكل، صارت "هيام" عصبية،

تشتكي لزوجها أن أمَّها مصابة بالتهيؤات، وأنها كادت تحرق البيت عندما تركت الأرز على النار ونسيته حتى احترق وامتلأ البيت بالدخان.

تزامنت شكواها من والدتها، مع تدهور حالة الأم وصعوبة حركتها بسبب كِبَر السنِّ وأعمال البيت الشاقَّة التي لا تُشارك هيام فيها أبدًا .

وفي النهاية أرسلتها لبيتها القديم حيث تعيش مع أخيها وزوجته وأبنائه الثلاثة.

***

لم يفكر"عادل" في خيانة زوجته، أو فِعل ما يغضب الله، لكن كل شيء بدأ عندما طُلِّقت حبيبته القديمة وعادت لتعيش في بيت أهلها، كان قد مرَّ على ولادة طفله الأول شهر، وكان يمرُّ على بيت والدَيه ليأخذ بعض الهدايا والملابس للطفل، أخبرته أمُّه أن زوج جارتهم تلك قد طلَّقَها لكنها في الحقيقة لا تعرف السبب.

في طريقه للبيت، جرَّب رقم الهاتف الأرضي لبيت حبيبته السابقة، وردَّت عليه، لم يتردَّد أو يُغلق الهاتف كما كان مُتوقَّعًا، وإنما تحدث معها قليلًا وفي النهاية حصل على رقم هاتفها المحمول، استمرَّت المُحادثات بينهما شهرَين، وفي النهاية تقابَلا في مطعم فخم اختاره هو، تكرَّرت اللقاءات التي بدأت مثل المحادثات في الهاتف بالعتاب ثم بالأشواق، وعندما جاء الحديث عن مستقبل ما بينهما ساد صمت ثقيل، وتوقف الكلام.

***

فكر"عادل" أنه كان سعيدًا عندما بدأت علاقته الثانية بجارته، وقرَّر أن تكون في حياته دائمًا علاقة ثانية مُختفية، لا يتبعها أي التزامات من ناحيته قد تؤثر على استقرار بيته. لم يكن يعرف من أين يبدأ بعد نهاية قصته مع جارته، لكن شريكه الجديد في العمل كان رجلًا مُحبًّا للحياة، وله نزوات كثيرة، وكان أيضًا متزوجًا من فتاة تصغره بستة أعوام، ربة منزل، لا تعرف التصرُّف دونه، تعتمد عليه ماديًّا ونفسيًّا وبذلك يأمن استقرار بيته بلا تمرُّد، أنجبت ولدًا وبنتًا هما كل حياتها.

انضم "عادل" لشريكه في الحياة السرية، أصبحا يُنهيان عملهما في المكتب كل يومٍ في الخامسة مساء، يذهبان للمطاعم والكافيهات يتعرَّفان على الفتيات، وكثيرًا ما تستمر العلاقة شهورًا أو عامًا. احتاجا فيما بعد لاستئجار شقةٍ صغيرة، عندما صادف أن تعرَّفا على رجلٍ

يفهم في الدّين كما يقولان، أخبرَهما أنه إذا تكفَّل أي منهم بالإنفاق على فتاةٍ أو امرأةٍ فهي تُعتبر ملك يمينِه وبذلك حصل "عادل" على تصريحٍ لممارسة الجنس خارج إطار الزواج.

كان لتشجيعُه على بقاء والدة هيام في بيته فوائدُ كثيرة، لأنها ستُسلي وقت زوجته، وتشغلها وتساعدها في أعمال البيت، فلا يشعر هو بالذنب أو التقصير.

عشرون علاقة أو أكثر دخلها "عادل" في السنوات التي قضتها أم زوجته في بيته، حتى جاء اليوم الذي أعادتها فيه زوجته لبيتها.

في تلك اللحظة فكر أن أولاده أصبحوا في حاجةٍ إليه، وتعهد بينه وبين نفسه أن يتوقف عما يفعل، رغم أنه لا يفعل شيئًا خطأً كما قال لنفسه.

بعد شهرٍ من مغادرة أمِّ هيام للبيت، اقترحت على زوجها أن يشتري لهما بيتًا أكبر يكفي الأولاد جميعًا، ووافقها زوجها واشترى بيتًا كبيرًا، وذهبت معه واختارت أثاثًا غاليًا وجديدًا وفرشت البيت الذي أصبح بيت عروسة.

أحضر لها زوجها خادمة لتساعد في تربية الأولاد، وتقوم بأعمال البيت، وتقضي هي النهار جالسة على الأريكة الزرقاء الجديدة، جوارها حقيبتها الكتان التي تحوي أدويتها، تتصفَّح مواقع أخبار الحوادث والفن، وتكتب وصفات طعام لن تُجربها أبدًا في دفترها الأحمر القديم.

تشاهد هيام على شاشة التليفزيون الكبير جدًّا الجديد برنامجًا يستضيف طبيب قولون، يُجيب على اتصالٍ من مريضة، قالت إن مشكلتها أنها لا تستطيع أن تُخرج الفضلات إلا إذا فتحت شطَّاف الماء، وبينما يسدي الطبيب نصائحه لها، تُعِد الخادمة طعام الغداء ويعود الأولاد من المدرسة، ويجلس "عادل" في مكتبه مُستغرقًا في التفكير إذا ما كان عليه ألا يقسوَ على نفسه ويلتزم تجاه زوجته وحدَها بينما يمكنه أن يتحدَّث قليلًا مع سيدةٍ أخرى أو يتناول معها الغداء في المطعم الفخم الذي يُحبُّه.

جاد

بقِيَت حادثة نجاته من الإصابة بمرض جنسي خطير، يحتاج شهورًا طويلة للشفاء منه هي معجزته لدى أصدقائه، لم يُصَب بالعدوى رغم أن دوره كان الأول بينهم ليدخل الحجرة مع الفتاة التي جاءت معهم لبيت "سعد" بعدما ناولها كلٌّ منهم ورقة من النقود لأنها تقبض نظير خدماتها مقدمًا، كما إنها لا تمتهن هذا العمل، وإنما هي ظروف تضطرُّها أحيانًا للنزول مرةً أو مرتين في الشهر.

"عايدة" مستعجلة هو اسم شهُرتها، لأنها ما إن تذهب مع الزبون حتى تُردِّد الكلمة كثيرًا، إنها مستعجلة لأن زوجها سيعود للبيت وستكون مُصيبة إذا لم يجدها، تقول ذلك طوال الليل، وتُكرِّره في الصباح وهي تُغادر. في تلك الليلة دخل "جاد" الحجرة معها لدقائق، خرج مُسرعًا وأخبرهم أنها "مضروبة"، لكن أحدًا منهم لم يُعِره اهتمامًا، وكادوا أن يسخروا منه ويُشككوا في حكاياته مع النساء، لولا صرخة مسعورة من عيد الذي كان قد دخل الحجرة مُسرعًا ليأخذ دوره.

ارتفعت أصوات عربة الإسعاف، وتجمَّع الناس حول البيت لنجدة "عيد" الذي يصرخ ويتلوَّى، بينما انسلَّ جاد من بينهم، تمشَّى قليلًا وهو يُدخن سيجارته ثم عاد للبيت.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يذهب فيها "جاد" مع أصدقائه في سهرةٍ كهذه، لأنه يُحب أن يفعل ذلك بمفرده، بمزاجٍ وهدوء كما يقول لهم دائمًا، لكن حكاياته عما يفعل في لياليه الحمراء، والنساء اللاتي تُطارده أينما ذهب، جعلت قضاءه الليلة معهم بمثابة عيد، ربما يتعلَّمون منه شيئًا مما يُوقع النساء والفتيات في غرامه.

يعمل "جاد" سائقًا للنقل، يتنقَّل بين المدن حاملًا أنواعًا مُختلفة من البضائع، يقضي لياليه على الأسفلت ويعود مرة أو مرتَين كل شهر وأحيانًا تمر فقط عشرة أيام قبل أن يُعاود الظهور على المقهى الذي يجتمعِ فيه أصدقاؤه.

تزوج "جاد" زيجتَه الثانية منذ تسع سنوات، كان وقتها في السادسة والعشرين من عمره، زوجته هي أم كامل، أرملة السائق الكبير الذي كان يعمل معه على السيارة، والذي كان بمثابة أبٍ له، بعدما غادر قريتَه وهو لم يبلُغ السابعة عشرة بعد؛ هربًا من أهل حبيبته التي أقام معها

علاقةً وقتلَها أهلها بسببه، هرب بحياته من قريته ولم يلتفت قطّ للوراء، جاء إلى المدينة، حيث عمل على سيارة الرجل، ثم ترقَّى معه بمرور الوقت، وصار مُساعده، ثم سائقه البديل الذي يقوم بنصف العمل، أم كامل سيدة تكبُره بعشرين عامًا، مُمتلئة الجسد جدًّا، بشكلٍ أفسد شكل قوامها، كتلة من الشحم تتحرك بصعوبة، ومع ذلك فهي الأخرى صاحبة معجزات، يمكنك أن تشمَّ رائحة الصابون وتشعر بندى الماء في بيتها، الستائر مغسولة دائمًا، الطعام والحلوى في أبهى وأشهى صورة، كل شيءٍ يلمع من النظافة، بينما تجلس هي على كرسي قريب من الباب، تطوله بيدِها حال جاء أحد، تقضي ما تبقَّى من النهار أمام منضدة صغيرة عليها صينية بها سبرتاية قهوة وفناجين وزجاجة ماء، تحكي للجارات عن زوجة ابنها قدري، تلك العروس الكسول التي لا تخرج من حجرتها إلا لتناول الطعام أو دخول الحمام، ورغم مرور ثلاث سنوات على زواج ابنها منها وولادتها لطفلٍ منه، تتعامل في البيت كما لو أن على يدِها نقش الحناء فلا تمدُّ يدَها في شيء، وتشاهد التليفزيون طيلةَ الوقت بينما اشترت هيَ لهم شاشةً وريسيفر ليسعدوا ويهنئوا في حجرتهم بعيدًا عن نظام البيت، تُضيف أنها هي الأخرى لا ترضى أن يطبخ أحد غيرها أو يُرتِّب شيئًا في البيت؛ لأنها وعلى حدِّ قولها مهووسة فيما يخصُّ النظافة ولا تأمن جانب أحدٍ في ذلك حتى لو كانت ابنتها.

ثم تحكي للجارات عن الأصناف التي طبختها في ذلك اليوم، وأنها صعدت فوق السُّلَّم الخشبي وأنزلت الستائر وفركت حوائط المطبخ والحمَّام حتى عادت كالجديدة، هي التي تتحرك من كُرسيها للحمام في عشر دقائق تفعل ذلك كلَّ نهار، وقرب انقضاء جلسة النساء، تتهامس معهنَّ عن الليلة الساخنة التي قضتها مع "جاد" وأنها كادت تفطس من فحولته قبل أن تتعالى ضحكاتهنَّ جميعًا ثم تُغادر كل واحدة لشئونها وسط الكثير من الحسد لهذه السيدة التي نالت بعد صبر، تقول النساء لبعضهنَّ من كان يُصدق أن هذه المرأة سترتاح من حياتها القاسية مع أبو كامل وبطشِه بها وبأولاده كل ليلة، كان الجميع يسمع صوت الصراخ، وطرقعة الحزام الجلد على أجسادهم جميعًا، أنجبت من زوجها الراحل بنتَين وشابَّين في سن "جاد"، زوَّج ابنته مُبكرًا من مساعد سائق يعمل معه، البنت كانت في السادسة عشرة من عمرها لم تذهب للمدرسة والزوج كان مُدمنًا للحشيش يضربها ويؤذيها، لكن أمَّها قالت لها الكلمة الحكمة؛ إنها ستعيش مع زوجها مهما كانت الظروف، وأن بيتهم لا يمكن أن يحدُث فيه

طلاق أبدًا. البنت الصغيرة كان عمرها خمس سنوات عندما مات أبوها في تلك الحادثة المشئومة، لكنها الآن حصلت على الإعدادية وقررت أمها أن هذا القدْر من تعليمها يكفي، لأن كثرة تعليم الفتيات تُنغِّص عليهن العيشة، وتجعلهنَّ نافدات الصبر تجاه التزامات الزواج وطباع الزوج، كما أنها في الأساس تُقلِّل فرصهم في الحصول على عريس مناسب.

يعيش كامل ابنها الكبير في بيت زوجته، هو ليس بيتًا بالمعنى المفهوم، هي قطعة أرض صغيرة ملكها جدُّهم الكبير، وتوارثتها الأجيال حتى وصلت لهم مبنيةً دورًا أرضيًّا بالطوب الأحمر والحديد، تتاجر عائلة زوجته في الألبان، لديهم بقرتان، وغلاية، يعيش الجميع في المكان؛ في الجزء الداخلي البقر، وفي الجزء التالي مكان بَسْترة اللبن وصُنع حلوى الأرز باللبن والأرز المُعمر، ثم الجزء المُخصَّص لنوم العائلة كلها وهو عبارة عن تقسيمات صغيرة تُشبه الغُرَف، يفصل الخشب أو الستائر السوداء الثقيلة بينها وبين بعضها، والحقيقة أن لا أحد يستطيع أن يجزم ما إذا كانت هذه الستائر سوداء بالفعل، أم كان لها لون آخر وتحولت لذلك اللَّون بفعل الزمن. وفي النهاية مَنفذ البيع، ثم زجاج العرض، وفي الليل تُغلق العائلة الباب الحديد وينامون .

قد تُغطي قطع الخشب والستائر كل حجرةٍ لكنها لا تمنع الأصوات، لذا فهذه العائلة لا تنفصل عن بعضها تقريبًا، حيث تقضي النهار في العمل معًا والليل في التصنت غير المقصود على ما يفعله الآخرون، هجر كامل بيت أبيه مُبكرًا قبل الحادثة بعامَين، كان صغيرًا لكنه هجَّ من قسوة أبيه وبطشه، قابل البنت الحلوة ذات الشعر الغجري بائعة اللبن في المُستودع الواقع على الحدِّ بين الريف والمدينة، وقع في غرامها، أعطاه والدُها عملًا معهم ومكانًا للنوم ثم منحَه يد ابنته. والحقيقة أنه رغم صعوبة العمل وقسوته فهو الذي يُحضر طعام الأبقار ويعتني بها، ثم يأخذ ألبان التوزيع للتجار، وحلوى الأرز باللبن لمحلات بائعي منتجات الألبان؛ يفعل ذلك على عربةٍ من الحديد مربوطة بعجلة، يروح ويجيء طوال اليوم في مشاوير على الطريق، أحيانًا يجيء والده على خاطره فيبتسِم بسخريةٍ ويفكر في الفرق الشاسع بين عربة النقل وتروسيكل نقل الألبان، لكنه يشعر بالرِّضا والسعادة. ليس لكامل أي علاقة بأمِّه أو أسرته، فرغم غضبه من أبيه، إلا أنه حزن للطريقة الغادرة التي مات بها، وتجريد أمِّه لهم من

ميراثهم بالحيلة كما أزعجه أن تتزوج بتلك السرعة بعد وفاته بشهور، وموافقة ورضوخ أخيه الأصغر قدري .

قدري الذي كبشَت أمُّه من مال أبيه، الذي كان يجمعه طوال عمره بعيدًا عن أيديهم حيث كان، بجانب عمله كسائق لسيارته النقل، كان يعمل في الخردة وقِطع الغيار وسمسرة السيارات، واستطاع توفير مبلغ كبير خصوصًا أنه كان شحيح الإنفاق على البيت، حتى إنه لا يذكر متى أعطاه والده نقودًا، فهو يعمل في مواقف السيارات ولدى ورش الميكانيكا والكهرباء منذ وعى على الحياة ليكسب رزقه، لأن والده يقول إن الرجل لا يصحُّ أن يمدَّ يدَه لأحدٍ خاصةً أباه، لكنه كان يستولي على أموال عمله هو وأخيه ويُعطيها لأمِّهما لتشتريَ الطعام وتدبر أمور البيت، لم يكن قدري جادًّا في تعلُّم صنعة أو العمل في شيءٍ خشن، وبعد الكثير من التجارب والإهانة في الورش استقرَّ لدى حلاق رجالي، يكنس المكان ويرشُّ الماء أمامه، ويعلق الفوط المبتلة خارج المحل، حتى تعلَّم هذه الصنعة، وصار صاحب مقصٍّ لا يُضاهيه أحد.

أعطته أمُّه من مال أبيه، واشترت دكانًا باسمها، وحوَّلته لمحل حلاقة، وجعلته يعمل فيه ويُعطيها ثلثَي الإيراد ويحتفظ لنفسه بالباقي، وعندما ألحَّت عليه زوجته أن يطلب منها زيادة نسبتِه، هدَّدته بالطرد هو وزوجته التي كانت حاملًا وقتها في طفلهما.

والحقيقة أن زوجته فتاة يتيمة الأب، ليس لها عائل ولا مكان آخَر تذهب إليه، لأن بيت أمِّها مُمتلئ عن آخره بالأفواه الجائعة، ولا يقبلون إعادة فمٍ آخر إليهم يحمل في أحشائه فمًا جديدًا.

غضب قدري قليلًا، لكنَّه كان طيِّب القلب، فأخبر زوجته أن تحمد الله، كما أنهما يعيشان في كنف أمِّه ويأكُلان ويشربان في البيت دون أن يدفعا شيئًا.

زوجته أيضًا كانت صغيرةً ومغلوبةً على أمرها، قليلة الحيلة، لكنها كانت تحلم أن يكون لها بيت بمُفردها، هي التي لم تملك شيئًا يخصُّها ولا حتى فستانًا أو قطعة ملابس داخلية، وسط عائلة كبيرة هي خمس فتيات بلا أبٍ ولا دخلٍ سوى عملهنَّ في ورش الخياطة ومصانع البسكوت الذي كان يكفي بالكاد، كانت تتمنَّى أن يكون لديها بيتٌ به حجرة واحدة حتى وصالة صغيرة، وشرفة تخصُّها يُمكنها أن تفتحها وتنشر الغسيل وتضع أوراق النعناع

والملوخية لتنشيفها، شقة صغيرة بعيدًا عن تحكُّم أم كامل تلك التي تُوقِظها قبل ضوء الفجر، لتبدأ العمل في البيت، تُنظف وتكنس وتمسح كلَّ يوم، وتحمل السجاجيد والستائر للحمَّام وتفرُكها كل أسبوعَين، وتفرك الأرضيات والحوائط كل أسبوع، حتى كادت أن تذوب، وتُشدِّد عليها أن تفعل كل ذلك دون أن يلمح طيفَها أحد من الجيران، فتُحكِم غلق النوافذ والشرفات، ولا تفتحها قبل أن تُنهي كل شيء، ثم تدخُل المطبخ قبل الظهر بساعتَين وتنهي أصناف الغداء، وعندما يؤذِّن الظهر، ذلك يعني أنها أعتقَتْها، وأن كل ما عليها أن تعود لحُجرتها ولا تخرج حتى تُناديها، وغالبًا ما يكون ذلك قُرب عودة قدري من العمل قرب العصر؛ حتى تُعِد الغداء ويأكل الجميع، ثم تُرتب كل شيءٍ وتعود لزوجها في حجرتهما تُجرجر قدمَيها من التعب، تحمل له كوب شايٍ بالنعناع، يشربه مع سيجارةٍ ثم ينام حتى أذان العشاء، وبعدها يأخذ دشًّا باردًا أيًّا كانت حالة الجو، وينزل للمحل ويعود قرب منتصف الليل، لا يتغير هذا الروتين إلا يوم الإثنين في إجازته، حيث ينام حتى منتصف النهار، وينهض لتناوُل الغداء، ثم يقضي باقي النهار في البيت بين زوجته وحُجرتها وجلسة والدتِه على كرسيها قرب الباب.

***

عندما أكمل "جاد" العشرين من عمره، كان يقضي معظم الوقت في نقلات على خطِّ مدينة ساحلية، وكثيرًا ما كان يرتاح هناك على مقهى قديم قريب من البحر، أو يتمشى هنا وهناك، وتلك كانت هوايته المفضلة أن يحرك ساقَيه بعد ساعاتٍ قضاها مُتيبِّسًا في كرسي قيادة النقل، تعرَّف وقتها على عزة، فتاة نحيفة سمراء، شعرها بُني وعيونها واسعة، كانت عذبة وحلوة الكلام خفيفة الدم، تعمل في البيوت، تُنظف وتزيل التراب بعد شهور الشتاء، قد تبقى مع عائلةٍ من المصطافين أسبوعًا تعتني بصغارهم وتغسل ملابس البحر وتُعد الغداء، يعرفها السماسرة، يُرشحونها للعائلات؛ فهي ترفض العمل في بيوت الرجال.

وتقول لجاد دائما إنها تشقى وتعيش بشرَفها، وأنها لا تعرف لها أهلًا، وإنما هربت من ملجأ منذ عامَين عندما أتمَّت السادسة عشرة لسوء معاملة المشرفات وتحرُّش الطاهي بها.

عادت عزة مع جاد لمدينته، أخذها معه في السيارة النقل، وأخبر مُعلِّمه أنها زوجته، عاشت معه خمسة أشهر، لكنها هربت من حجرته التي كان يعيش بها فوق سطح بيت أبو كامل بعد

أسبوعين من إنجابها طفلتها.

واضطرَّ لتطليقِها غيابيًّا ليحفظ سُمعته وكرامته أمام الناس، ولا يُعايره أحد بزوجته التي لا يعرف عنها شيئًا.

رغم الفضل الذي شعر به جاد نحو معلمه، إلا أنه كان ينفر من معاملته لأولاده وزوجته، يضربهم ويُعاملهم بشدةٍ فائضة، يشحُّ عليهم في الأموال رغم حالته الميسورة، كثيرًا ما قضى لياليه على صوت بكاء ونحيب الأولاد وأمهم. حتى إنه فاتحه في ذلك مرة، عندها تبدَّلَت ملامح أبو كامل، وأخبر جاد بخشونةٍ زائدة أنه لا يُحب التطرُّق لحياته الشخصية، لكنه أعطاه الكلمة الحِكمة بأنَّ احتقار المرأة هو سِرُّك لتملُّكها وتجويع الأبناء هو طريقتُك لتحكمهم.

كانت مجرد شائعات ظالمة تلك التي ورطت أم كامل في مقتل زوجها، بينما كانت المسكينة في زيارة لأحد الأولياء، جهَّزت الطعام والماء منذ الصباح، واصطحبت ابنتها الصغيرة وابنها قدري بعدما أخذتِ الإذن من زوجها واصطحبت جارتَين وقضينَ اليوم في الفناء الواسع جوار مسجد الولي، دعت هناك كثيرًا وبكت ليفكَّ الله كربَها ويهدي زوجَها، وبعد صلاة العشاء تزوَّدَت بالبركة من المكان وعُدنَ ليجدْنَ الفاجعة.

التهمَتِ النار واجهة البيت وصالة شقَّتِها حتى الشرفة سقطت بأبي كامل ومات مُتفحمًا. تقول تقارير الشرطة إن جسمًا معدنيًّا ربما كان وسط كومة الخردة التي اعتاد أن يُتاجر بها احتوى موادَّ متفجرة، ربما تعرَّض لحرارةٍ مفاجئة تسبَّبتْ في انفجاره مُحدثةً ذلك الانفجار المدوِّي.

بعض النساء الحاقدات تحدثنَ في الأمر من وراء ظهرها، حتى إنها اقتِيدَت لقسم الشرطة هي والولد قدري، وجاد الذي كان على الطريق وقت الحادثة ينقل البضاعة لإحدى المدن الصناعية في طرفٍ آخر من البلد، تحدثت الشرطة مع الجميع، وتبيَّن عدم تورُّط أحد، إنما فقط هو قضاء وقدَر، خفَتَ الحديث عن كون الحادث مُدبرًا، وتصاعد الحديث عن لطف الله، الذي أكرم السيدة المسكينة وأولادها وأنقذهم من موتٍ مُحقق، كما أنقذهم من يدِ الرجل القاسي.

كان قدري ضعيفَ الشخصية ثقيل اللسان منذ الولادة، وكانت أم كامل تحتاج لأحدٍ تستند عليه، ليُنهي معها إجراءات إعلام الوراثة وغيرها، وكان جاد ذلك الرجل كما أنه رتَّب

لها لقاءً مع محامٍ أعد لها عقودًا بممتلكات أبو كامل، وطلبت توقيع قدري والبنت الكبيرة وحتى كامل الذي استدعى موتُ والده مجيئَه للبيت، حصلت على توقيعهم جميعًا لدى المُحامي لتُنهي إجراءات الميراث الذي كان سيَّارتَي نقل، وثلاث سيارات خردة في مخزنٍ مليءٍ بالنحاس والحديد، ومبلغًا كبيرًا من الأموال السائلة في دفتر توفير.

فيما بعدُ عرف الأولاد أن أمَّهم جعلتهم يُوقِّعون على تنازُلٍ عن حصَّتِهم، برَّرت ذلك أنهم أولادها ولا يصحُّ أن يخرجوا عن طوعِها، كما أن كلَّ تلك الأموال التي جمعها أبوهم، هي السبب فيها بصبرها ووقوفِها جواره، وليس لأحدٍ منهم مليمٌ فيها، واختتمت الكلام بأنها كانت وصية أبيهم، وهي لا يمكن أن تُخالف وصيةَ ميت.

وحدَها البنت الصغيرة القاصر التي "نفدَت" بميراثها؛ حيث كانت تحت وصاية أمِّها ولا يمكن التصرُّف في أموالِها حتى تكبُر، لكنَّ أمَّ كامل كانت تعرف أنها ستكون تحت سيطرتها كما كان إخوتها جميعًا.

يفكر جاد في حاله كثيرًا، ربما يقضي ساعات المشي الطويلة صامتًا بلا صديقٍ أو ونيس، يفكر في صباه وفي قريته البعيدة وكيف خذلته رجولتُه يوم دفع ورقة النقود الكبيرة التي ادَّخَرَها في شهرين، ودخل لحجرة نعيمة فتاة الليل الشهيرة بالقرية، حاول هو برعونته وحاولت هي معه بخِبرتها، قبل أن ترفع جسدَها من الفراش جواره وتُخبره أنه يجب أن يُراجع طبيبًا، خرج غاضبًا من عندها في ذلك اليوم، وعاد بعد شهرَين وأعاد الكرَّة لكنه فشِل مرةً أخرى، تلصَّص على البنات بين الزرع ووسط الحقول، أمسك بإحداهنَّ كما تُمسك سيدة الدار بدجاجة من العش، حاول تقبيلَها وتعريتها لكنه فشِل في أن يُكمل ما بدأه، خرج من وسط الحقول وظلَّ يجري حتى حملته قدماه لمحطة القطار، وهناك ارتمى في القطار القادم للمدينة، حيث قابل أبو كامل وعاش في كنفِه، وعندما أحبَّه الرجل واطمأن له، وفاتحَه في رغبته في تزويجه من ابنته الكبرى، أخبرَه جاد أن له زوجةً في المدينة الساحلية، وأحضرَها بالفعل معه، البنت عزة، التي اعتدى على شرفها رجلٌ كانت تعمل في بيته، وعندما واجهت زوجته بذلك طردتها وهدَّدتْها بتقديمها للشرطة إن عادت .

كان الحمْل قد بدأ في الظهور على البِنت التي وقعت في عرضِه، فتزوَّجها وعاد بها للمدينة، لكن البنت صغيرة وتريد أن تتمتَّع بالدُّنيا، وجاد يُعاملها مثل أخته، ويُخبرها أن

زواجهما باطل لأنها حامل، وعليها أن تشكُره لأنه سترَها ولا تطمع في أكثر من ذلك، لكن البنت عرفت بحدسها أن هناك شيئًا غير طبيعي في جاد، ولخوفه من افتضاح أمره كتب الولد على اسمِهِ أمام الجميع وأعطاها مبلغًا من النقود وطلب منها الرحيل على أن يُرسِل لها ورقتها فيما بعد على مدينتها الساحلية؛ شرط أن تخرج من حياته للأبد، وإلا طعن في نسب طفلِها، وبالفعل تمَّ كل شيءٍ كما أراد.

ظلَّ يكذب، ويخترع القصص حول علاقاته بالنساء، وضحاياه في الغرام على طول طريق الأسفلت الذي يسلكه في رحلاته.

لكن عندما جاءته أخيرًا فرصة الاستقرار والحصول على الثروة لم يُمانع، خطط مع أم كامل لكل شيء، حصل على المُتفجرات وزرعها في كرة النحاس ودسَّها وسط الخردة ثم نقل سبرتاية القهوة ونرجيلة أبو كامل للشرفة، وعندما رتَّب كل شيءٍ بحيث تُصبح النار قريبةً من مكان الاشتعال استأذن ليذهب لنقل بضاعة المدينة الصناعية، ورتَّبت هي الخروج مع أبنائها وجاراتها طيلة اليوم، حدث كل شيءٍ كما رتَّبا له.

مات الرجل، وحصلت على حُريتها وأمواله، لكنها طمعت أكثر في شباب جاد، وجاذبيته، فاتحَتْه في الزواج بعدما منحَتْه ما اتَّفقا عليه من أموال، وافق على الزواج منها، وفي ليلة الزواج وجد أخيرًا من يُخبره بسرِّه، ويُطلعه على ما في قلبه، حكى لها حكايته وبكى في حُضنها، متعبًا ربما أو مطمئنًّا أنها لن تستطيع أن تُفشي سرَّه لأحد.

عاشت أم كامل لسنواتٍ مع جاد، لم يُنغِّص هدوء حياتهما شيء، بينما تجلس مع جاراتها لتحكي عن فحولته معها، ويمضي هو في المَقهى وعلى الطريق، ليعرف الجميع بمُغامراته في كل بلدٍ يصل إليه، لكنه يظلُّ يمشي كثيرًا في أوقات الراحة في الشوارع علَّه يُسرسِب ما يملأ قلبَه من أكاذيب وضوضاء.

أم غالية

يبدو الأمر غريبًا .. وانتقائيًّا جدًّا، ذلك لأنَّ أم غالية لدَيها غيرها ثلاثة أولاد وبنت وترتيب غالية هو الأخير بينهم، ومع ذلك اختارت أمُّها أن تُنادى بلقب "أم غالية"، رغم أن ابنها البِكري رجل، وكان يمكن أن تنادى باسمه كعادة النساء في المناطق الشعبية أو في الأماكن التي تعتاد فيها الذكور أن يُنادوا المرأة باسم زوجِها ثم ابنِها الكبير فور إنجابها.

الفرق بين غالية وأكبر أخواتها سبع سنوات، فماذا كانت تُلقَّب أم غالية طوال تلك الفترة قبل إنجابها لها!

أم غالية سيدة مُسنَّة شديدة البأس، تُهيمن على أبنائها الذكور، يتناوبون على زيارتها طيلة الأسبوع بحيث يزورها كل رجلٍ منهم مرتَين، ويبقى يوم الجمعة للبنات وعائلاتهم غالية وسعاد.

يصعب التكهُّن بما في قلبها، هل قطعة لحم حمراء نابضة، أم قوقعة صمَّاء تعكس أصواتًا تُشبه صوت الحب دون أن يكون معروفًا لها بالأساس.

هل كان كذلك دائمًا، أم أن ما مرَّت به، وما حدث لها في حياتها جعلها تستبدل بالقلب قوقعة البحر الكاذبة تلك، بوسعك إذا قرَّبتها من أذنك وأغمضتَ عينيك أن تسمع صوتَ البحر كأنه هناك، في حين أنك تقف في الغالب في حجرةٍ فارغة كئيبة ليس بها حتى شباك تتسلَّل منه نسمة هواء.

يظهر صوت البحر ونسماته للبنت غالية دون أحد، هي سِرُّها، تحكي لها كل شيءٍ وتُخبرها بمكان خبيئتها من ذهبٍ وأموال، وعندما تزوَّج الجميع وغادروا لم يحق لأحدٍ الاحتفاظ بمفتاح البيت سواها، تجيء في الترتيب بعدَها ابنتُها سعاد، لكن دون أسرار ولا مفتاح، الأحفاد من بناتها أيضًا لهم قلب جدَّة طيبة يخاف ويدعو ويتمنَّى لهم كل الخير.

القليل جدًّا للأبناء الذكور، ولا شيء لأحفادها منهم، والكُرْه غير المُبرَّر لزوجاتهم، فلا شيء يُمكنه أن ينالَ رضاها ومحبَّتها.

تجيء هيمنة "أم غالية" على أولادِها الذكور بدافع الرهبة وليس الحُب، يحكي الابن الكبير ذلك قائلًا"أخاف من دعوتها" ويؤمِّن الأوسط على كلامِه بهزة ثقةٍ من رأسه بينما يختِم

الصغير السيرةَ قائلًا"دعوة الأم منها للسماء" وينظر كلٌّ منهم للآخر نظرة يقينٍ ويسود صمت طويل.

هذا اليقين جاءهم منذُ ثلاثين عامًا أو أقل بعامٍ أو عامَين، كان ابنُها الكبير تخرَّج حديثًا من معهد الخِراطة وعُيِّن في مصنعٍ كبير بمُرتب مُجزٍ، أكبر من أي مبلغ سمع عنه هو أو أحد من إخوته.

ذلك لأنهم نشئوا نشأةً قاسية، فحينما أنجبت أمُّهم طفلتها الأخيرة وكان قد مرَّ على زواجها ثمانية أعوام، ناداها زوجها ليلة الخميس، كان اليوم التالي لتمامِها أربعين ولادتها، تحمَّمت وغسلت شعرَها الأسود الفاحِم وجمعَتْه في ذيل حصانٍ طويل خلف ظهرها، كان الشباب والنضارة والصحَّة يطلُّون من وجنتَيها، والشَّوق لزوجها يملأ عيونها السمراء الواسعة، جلست جوارَه تنتظِر أن يُداعبها خاصةً بعدما طلب منها أن تتأكَّد أن الأولاد ناموا، وخِلافًا لتوقعاتها جلس على مسافةٍ منها، صمت طويلًا ثُم قال لها إنه ينوي هجرَها والزواج بأُخرى، لأنه يُحب .. وهو رجل شريف وابن أصول كان من المُمكن أن يتهرَّب منها ومن أولادها أو كما قال بالضبط "أطفش منكم ولا تعرفون لي طريقًا" لكنه يُقدر مسئوليته ناحيتَها وناحية أولاده.

لطمت خدودَها وقطعت شعرَها، وبقِيَت يومَين بلا نُطقٍ ولا حركة، حتى كادت غالية أن تموت من الجوع وعدم الرعاية.

في نهار اليوم الثالث، نهضت من مكانها، وأخذت حمَّامًا باردًا، وخرجت من الحمَّام، ارتدت جلبابًا أسود، ذلك اللون الذي لم تُغيره أبدًا بعد رحيل "أبو الولاد" كما تقول عنه في المرَّات النادرة التي تفتح فيها سيرتَه أو تسمح لأحدٍ من أولاده بالحديث عنه أمامها، ولمَّت شعرَها الطويل في ضفيرةٍ ثم أخفَتْها في منديل رأسٍ لم تخلعه ثانيةً فلم يظهر شعرُها حتى لأولادها بعد ذلك اليوم.

نظَّفت الصغيرة ورتَّبت البيت وطهت الطعام، وأدارت البيتَ بالقروش القليلة التي كان يُرسلها الرجلُ كلَّ شهر، وطوال سنواتٍ حتى وفاته، حيث استطاعت أن تقبض معاشَه مُناصفةً مع زوجتِه الأخرى. أم غالية رغم الخيانة والغدْر لم تسعَ للطلاق من زوجها أو الزواج مرةً أخرى، لكنها لم تُقابله قطُّ بعد تلك الليلة التي أخبرَها فيها بتخلّيه عنها. في زيارته السنوية للبيت كانت تبقى في حُجرتها وتُغلق بابها بمفتاحه، وهو لم يُحاول أن يُقابِلها أو يراها، كان

يزور الأولاد في العيد الصغير حاملًا الملابس الجديدة والكعك، ويُرسِل لهم خمسة كيلو من لحم الجمعية المستورد في عيد الأضحى. وساهم، بعد مباحثاتٍ ووساطة كبيرة من المعارف والجيران، في تجهيز ابنتَيه للزواج، فقدَّم مبلغًا صغيرًا اشترت منه الأم أشياء بسيطة، بينما وقع على عاتق أولادها الذكور أن يقوموا بالواجب نحو أخواتهم الفتيات ليُشرِّفوهم أمام الأهل والجيران.

غير ذلك لم يكن يزورهم ولا كان مسموحًا لهم بالذهاب عند زوجته الأخرى، على بُعد شارعَين من بيتهم، التي عاشت معه حتى وفاته دون أن يُنجبا أي أطفال.

كان يعمل موظفًا بأرشيف أحد المصالح الحكومية، رجل هادئ الطباع، تقليدي، لا يظهر عليه مَيل ما نحو المُجون أو النساء .. ولا يعرف أحدٌ حتى هذه اللحظة السبب الذي جعلَه يهجر أمَّ أولاده بهذه الطريقة.

اعتادت "أم غالية" أن تُدير البيت بقروشه تلك وتُرسل أبناءها الذكور للعمل في الورش والمحلات القريبة طوال فصل الصيف، حتى إنها أحيانًا كانت تدفعهم للعمل نصف يومٍ في أيام الدراسة، وكانت تجمع حصيلة عملِهم وتُسيِّر الأمور دون أن تلجأ لأحد.

لم تكن تشعر بالأسى لذلك، فهي من أنجبتهم، وبشكلٍ ما، هذا هو ميراثهم الذي تخلَّى عنه أبوهم. لم تُفكر هي في العمل، لأنها لم تكن تُجيد فعل شيءٍ خارج البيت، لم تذهب للمدرسة لأنها، كما تقول عن نفسها، "مكنتش غاوية تعليم"، وكانت ترى أنه من الإهانة أن تعمَل في بيوت أحدٍ ولدَيها أولاد ذكور، لم تكن تُريد أن يُعايرهم أحد إذا ما عملت في البيوت، وكانت ترى أن طريقتَها في إدارة البيت وحياة أولادها تُحافظ على كرامتهم جميعًا.

بسبب ذلك كله أثار مُرتب الابن الكبير جلبةً ضخمة في البيت، ومباحثات حول كيف سيتم تقسيمُه وإنفاقه، والنسبة التي سيتحصَّل عليها الابن في النهاية من مُرتبه؛ حيث جلست الأم معه جلسةً خاصةً لا ينساها رغم مرور كل تلك السنوات. هو الذي شارف على الخمسين الآن، قالت له إنها ستُعطيه مصروفَه القديم كما هو وتُضيف عليه نسبة لا تتعدَّى الخمسة بالمئة من مُرتبه ليشتري ملابس أو يركب مواصلات أو غيره، ذلك الذي رفضه الابن الأكبر تمامًا واعتبره ظلمًا وافتراءً؛ بل إنه قال لها هكذا بلا حياءٍ وبصوت سمِعه جميع من في البيت "دي تبقى سرقة".

أنهى كلامَه وغادر البيت، ولمدة أسبوعٍ كامل لم تعرف الأم عنه شيئًا ولا إخوته، وعندما عاد ظنَّ أن الموضوع انتهى وأُغلِق برفضه لهذه النسبة الكبيرة من المساهمة في مصروف البيت.

الحقيقة أنه لم يكن ينوي أن يدفع قرشًا لهم، وإنما كانت لدَيه خطة سرية أخرى.

خاصمَتْه أمُّه شهرًا، إلا أنه أحضر لها كيسًا من البرتقال في بداية الشهر التالي، عقب قبضِه مُرتبه ودخل عليها حجرتها ليُصالحها، وقال لها إنه لا يُهمُّه شيء في الدنيا سوى رضاها.

وعندما ابتسمت أخبرَها بأنَّه وجد بنت الحلال وينوي الزواج، كان لتلك الكلمات وقع صدمةٍ كتلك التي خلَّفتها كلمات أبيه الأخيرة في تلك الحجرة وفي نفس المكان، لكنها هذه المرة لم تلطم خدودها أو تصرخ، لكنها سألته بهدوءٍ عن سبب رغبته السريعة تلك في "شيل الهم" والمسئولية، وأضافت أنها كانت تنتظر تخرُّجه بفارغ الصبر ليُساعدها في مصاريف إخوته. ثار عليها وأخبرَها أنه ليس والدَهم وليس مسئولا عنهم، وأنه يريد أن يعيش حياته.

هنا صرخت وأخبرَتْه أن يَحْذَر غضبها، وأنها ستدعو عليه من قلبِها وتشتكي للسماء، ورفعت يدَها ووجهها نحو السقف وقالت بغلٍّ حقيقي "ربنا ينتقِم منك".

ليس الابن الأكبر وحدَه وإخوته من يذكر تلك الواقعة، الحي كلُّه ظل لفترةٍ طويلة يتحدث عن شرفة المنزل التي سقطت منها العروسة ليلة الحنة..

استأجر الابن الأكبر شقةً صغيرة؛ حجرة وصالة في بيتٍ قريب من منزل أمِّه، فكر أنه سيزورُها مع عروسِه عندما تهدأ الأمور، ويُعيد حبل الوصال، فمهما كان هي أمُّه التي ربَّتْه وهو ابنها الكبير أول فرحتها .. اختار فتاةً جميلة وطيبة ابنة جيران لهم، تعمل في مصنع ملابسٍ قريب من الحي، ولها مُرتب ثابت معقول يكفُل لهما مع مرتَّبِه حياةً رغدة لم يسبق له أن جرَّبها. اشترى حجرة نوم مُستعملة لكنها بحالة جيدة جدًّا، وفكَّر أنه لأول مرةٍ سيكون له سرير كبير ينام فوقَه حيث اعتاد مشاركة أخيه سريرًا صغيرًا قصيرًا.

ساعدته العروس في تجهيز الشقة الصغيرة، حتى أنهما حصلا على تليفزيونٍ صغير، ساعات قليلة باقية على سعادته، هكذا فكَّر وهو يُشعل البخور في الشقة ويُتمتم بالأدعية والقرآن ليُباركها.

قبل الزفاف بيوم .. كانت ليلة الحنة، حملت أم العروس الطبلة، وجلست في صالة بيتهم بالدور الثالث وتجمَّع أصدقاء العروس وخالتها، امتلأ الشارع بالرقص والزغاريد، استطاع الابن الأكبر سماع كلِّ شيءٍ بمجرد أن خطا خطوته الأولى في أول الشارع.

مشى فرِحًا يُدندن بالأغنيات التي تنبعث من بيت العروس، تمنَّى لو كانت أمُّه هناك الآن تُهنِّئ عروسه وتستقبلُه بحضنٍ طيبٍ فور وصوله.

ما إن وصل قُرب بيت العروس ورآها من بعيدٍ تلوِّح له، كانت ترتدي فستانًا أصفر يضوي في الليل وابتسامتها تملأ الشرفة .. خطوات تفصِلُه عنها، وفجأة؛ صوتُ انهيارٍ وارتطامٍ شديدٍ وأتربة وصراخ ودم.

فتح عينَيه بصعوبة، ووجد الأربطة الطبيَّة تحكم رأسه وإحدى عينَيه وجبيرة في ذراعه اليُمنى وقدمَيه في الجبس، بصعوبة استطاع التعرُّف على أخيه الأوسط والصغير..

عندما سأل عما حدث، لم يُخبره أخواه بشيء، كما أمرهما الطبيب، سأل عن عروسه أخبروه أنها بخير لكن قدَّمَها كسرت، لذلك لن تستطيع زيارته، وأن كتلةً أسمنتية من عمارة مجاورة سقطت في الشارع بالقُرب منه وأصابته إصاباتٍ بسيطة.

غادر المَشفى بعد شهرين، بقدمٍ سليمةٍ وأخرى بها عرَج واضح سيُلازِمُه لبقية حياته، وعرف فاجعة وفاة عروسه، وأن أهلها ذهبوا للشقَّة وأخذوا كلَّ ما فيها، بسبب شؤم العريس الذي تسبب هو وأمُّه الملعونة في موت الشابَّة الجميلة.

اختلط الأمر كثيرًا على الابن الأكبر، لدرجة أنه في أحيانٍ كثيرة لم يعرف هل أحزنه وفاة العروس أكثر أم ضياع السرير والتليفزيون الصغير.

أعاد الشقة المُستأجَرة للمالك، وجمع ملابسه وعاد لبيت أمِّه.

أمُّه الطيبة التي جلست في مكانها المعتاد فوق الفراش في حجرتها، مُرتدية السواد وغاضبة عليه.

جلس تحت قدمَيها وقبَّل يدَها، واعتذر لها عن جحوده؛ قال إنه يعيش برضاها ودعواتها. ومنذ تلك الحادثة لم يُغضبها هو أو غيره من الأبناء الذكور. لسنواتٍ حصلت على كل ما يعملون به، جهزت غالية وسعاد، وارتدت الذهب، وغيَّرت أثاث البيت، ثم سمحت لهم بالزَّواج واحدًا خلف الآخر دون أن يخرج أحدٌ منهم أو زوجاتهم عن نظامها ورضاها.

" أم غالية" سيدة مُسنة شديدة البأس ترتدي السَّواد وتجلس فوق فراشها، بينما يتناوب أبناؤها على زيارتها، وترفع هي يدَها ووجهها نحو السماء وتدعو أن تحلَّ بركاتها ورضاها عليهم.

خيالات طريق

أشعر طوال الوقت أن البنت الصغيرة تُراقبني، أشعر بأنفاسها داخلي وهي تقف خلف شبَّاكٍ خشبي مَطليٍّ بلون أخضر ثقيل، تبدو الأمور مُحتملة ما دامت تكتفي بالمُراقبة، لكنها تُشوّشني وتجعلني أعاني من صعوبةٍ في التنفُّس كلَّما تقدَّمت بدلًا مني، وأطلَّت من عيوني.

كلما مررتُ بطريق الذهاب لبيت جدَّتي، ورغم معرفتي بما ألمَّ بالشوارع من تغيير، يُمكنها أن تُبدِّل كلَّ ذلك في لحظة، أقود سيَّارتي هناك ببطءٍ شديد، لأني لا أتبيَّن الفرق بين ما هو حقيقي وما أراه بعيون البنت الصغيرة التي كُنتها يومًا، وسعدت كثيرًا وأنا أتخلَّص من جسدها المُمتلئ الثقيل اللافت للانتباه، وخجلها الذي يجعل الأمور تختلِط على كلِّ من يُقابلها؛ هل هي خجلة أم بلهاء.

غير أنَّ أكثر ما أسعدَني التخلُّص منه في فترة الطفولة كلها، هو ليالي الشتاء في بيت جدَّتي، ونظرات أمِّي لي إذا زارنا أحد الغرباء.

بيت جدَّتي واسع، مُرتفع الحوائط والسقف، ويئنُّ، طالَما سمعتُ أنينه في كل الليالي التي بقِينا فيها للمَبيت هناك، أتذكَّر عرقًا باردًا يلفُّ جسدي، يجعلني أشعر بشيءٍ يُشبه الغرَق في ملابسَ شتوية ثقيلة، مُحكم عليَّ غطاءٌ من الصُّوف الرمادي الخشن كانت تمتلئ به البيوت قديمًا، الرُّعب كان يجعلني أرتجف داخل ملابس ثقيلة مُبللة بعرقٍ يُشبه أن تقف تحت المطر في مكانٍ مظلم في انتظار ضوء سيارة لتُقلَّك بعيدًا عن الجحيم، قبل أن تعرف أن العربة الوحيدة التي مرَّت من هنا ووقفت لك هي عربة مخاوفك، كل ما يُزعجك وتخشاه سيُحاوطك لساعاتٍ حتى طلوع النهار.

كنتُ الطفلة الأكبر وسط إخوتي، تتركني أمِّي على الكنبة الصغيرة بمفردي، وتحتضن أخويَّ التوءم الصغيرين وتنام على الفراش المُقابل لي، لكن أشياء كثيرة كان تمرُّ أمامي في الظلام، وعيونًا تُحدِّق بي، وأشباحًا خشنة الملمس تتعلَّق بيديَّ وقدميَّ.

أمي قريبة أبي التي تُحب حماتها، وتُفضِّل بقاء كل الوقت المُتاح جوارها وفي بيتها، تقول إنها تربَّت يتيمة الأمِّ وأن تلك السيدة كانت بمثابة أمٍّ ثانية، تحكي دائمًا عن الوصفات التي طالما تعلَّمَتها منها، وحميمية مشاهدة أحدٍ يطهو، يُمرِّر لك أسرار الوصفات وخِبرته

وحكاياتِه، فيعيش مع كل طبقٍ يصنعه ويتذوَّقه الآخرون. تقول ذلك وهي لا تعلَم أن الأمور ستتغيَّر بعد سنواتٍ قليلة، حيث تملأ وصفات الطهي صفحات الإنترنت وبرامجه، ستُقدَّم في التليفزيون طوال الوقت في قنواتٍ مُتخصِّصة ويُصبح كلَّ شيء بلا خصوصية أو أسرار، يصنع الطهاة على القنوات كل شيء، يُعلِّمون النساء تقطيع السلطة وصُنع الشوربة وسلق المكرونة، و طهي الد يك الر ومي، حتى صنا عه الكعك وكل الو صفات المُرتبطة بمنا سباتٍ تُقدَّم في البرامج. ستختفي فكرة أن تسأل زوجة صغيرة سيدةً أكبر منها عن وصفةٍ أو طريقةٍ لطهي شيء. ستملأ محلَّات الأكل الشوارع، ومشاريع مئات النساء لصُنع الأكل البيتي وترويجه عبر صفحات مواقع التواصُل، ستتوقَّف مُعظم النساء حتى عن دخول المطبخ للطهي، ويستبدل بكل ذلك قوائم طعامٍ جاهزة من مطاعم الوجبات السريعة أو مشروعات سيدات الأكل البيتي .

ستخمد نيرا ن المطابخ ويتوهَّج الميكروويف لتسخين الطعام ، والكاتل لتسخين الماء بحرارة ليست كافية لإعداد شايٍ مضبوط، وتنتهي جلسات السبرتاية وتحلُّ ماكينات القهوة، سيُصبح عالَمنا غريبًا يا أُمي، كما كان دومًا غريبًا وغير مفهوم لك .

يملؤني الارتباك والحيرة كلَّما عبرتُ طريق بيت جدَّتي، تتبدَّل الشوارع الجديدة، ويختفي الكوبري الحديث الذي تمَّ بناؤه منذ عشر سنوات ، وألمح المعدِّية والسينما المُحترقة والشوارع الضيقة التي لم تعُد موجودة. شيء يُصيبني بالدَّوار ويسحبني داخل دوَّامة ماء افتراضية؛ لأعود لهناك حيث أقضي ليلةً شتويةً باردة، مُبللة بعرق الخوف مُدثَّرة ببطانيةٍ من الصُّوف الخشِن، وتُحاول أشباح رمادية أن تطول يديَّ وقدميَّ.

كانت أمي تُوصيني كثيرًا ألَّا يلمس جسدي أحد ، وتُحذِّرني من الحديث أو اللهو أو الضحك مع الغرباء، لكنَّها طوال الوقت كانت تُحدِّق بصرامةٍ في عينيَّ إذا ما رأتني أجلس جوارَ عمٍّ أو خالٍ أو صديقٍ لأبي، تُحدِّق بي، وتضغط بأسنانها على شفتها السُّفلى، فأرتبك وأنهض من مكاني وأُغادِر للداخل وأنا أتمنَّى أن أتلاشى في طريقي لحُجرتي حتى لا تُوبِّخني أُمي بعد مغادرة الضيف.

وهو ما كان يحدُث دائمًا، ومعه صفعة على وجهي، أو قرصة ليدي أو فخذي.

كانت أُمِّي طيبة القلب، لكن اليُتم والحياة الصعبة التي عاشتها في طفولتها بين زوجات جدِّي، جعلَها تبالغِ طوال الوقت في ردود أفعالها أو هكذا كنت أظن .

كنت أصادف في بيت جدتي أخوات أمي وأخوات أبي وأولادهم، بسبب القرابة بين أبي وأمي، كنَّا نقضي هناك الصيف والأعياد وأيام اضطراب الطقس، والليالي التي يبيتها أبي خارج البيت بسبب عمله. ورغبة أمي الدائمة في التواجد وسط العائلة والشعور بالدفء الذي افتقدتْه في معظم أوقات حياتها .

أيامٌ كثيرة أكون بنتًا وحيدة وسط الكثير من أبناء الأخوال والأعمام، معظمهم في سنِّي أو أكبر منِّي بعامٍ أو اثنين أو خمسة.

رغم تحذيرات أُمي، سقطت علبة البلِي، ونزلنا أنا وفارس وعلي لنجمَعها من تحت فراش جدَّتي، جمع علي ملء كفَّيه وخرج مسرعًا، وبينما كنتُ أجرُّ جسدي لأخرج من تحت الفراش أطبق فارس بيدهِ على يدي، وعندما كدتُ أتكلم أشار لي بوضعه يدَه الأخرى على فمِه طالبًا منِّي أن أصمت.

ثم قرَّب وجهه من وجهي وظلَّ يُحدِّق فيَّ، ثم أخذ يتنفَّس بسرعة، وقوة حتى أني شعرت بأنفاسه كلها تُغطي وجهي، كان ينظر لي نظرةً مُرعبة لم أفهمها، كنت غير مرتاحةٍ وأرغب أن أخرج من هناك، لكنِّي تجمدت، حتى أفقتُ على صوت أُمي وهي تُنادي وتطلب منِّي بغضبٍ أن أخرج من هناك.

توقعتُ أن تضربني أُمي أو تُوبِّخني، لكنها بدت هادئةً وهي تسأل فارس عما نفعل تحت الفراش، وعندها أخرج من جيبه حبَّات البلِي وحكى لها أننا كنَّا نجمعها من تحت الفراش بعدما أسقط عليَّ البرطمان، هزَّت أُمي رأسها ولم تُعلق، وغادر فارس الحجرة، جذبتني أمِّي من ملابسي وأغلقتِ البابَ خلفها ثم صفعتني على وجهي وسألتني عمَّا فعلنا تحت الفراش، أخبرتُها أننا لم نفعل شيئًا، وعندما قرصتني وجذبت شعري أخبرتُها أن فارس كان يُقرِّب جسدَه ووجهه منِّي ويتنفس بسرعة وقوة بالقُرب من خدِّي وأني ظننتُه مريضًا أو يُعاني من شيء.

أخبرتني ألا أفعل ذلك مرةً أخرى وإلا ستُخبر أبي ليقتلني، وأنا في الحقيقية لم أفهم كيف يكون القتْل جزائي لأني نزلتُ لأجمع حبَّات البلي!

ما كنتُ أحتاجُه منها فعلًا أن تظهر في ذلك اليوم، عندما تجمَّعنا في بيت جدَّتي، في عيد الأضحى، بعد الغداء خفتَتِ الضوضاء وخفَّ الزحام كثيرًا في حجرة الطعام، تجمَّع بعض الرجال في حجرة الجلوس لشُرب الشاي بالنعناع الذي تصنعه جدتي، البعض ذهب للراحة في إحدى الحجرات الكثيرة التي يَمتلئ بها البيت، الأولاد انقسموا للعب في الشارع أمام البيت أو في الصالة الكبيرة، النساء في المطبخ يغسلنَ صحون الوليمة ويُرتبنَ أمور الذبيحة، بينما أخذت تفاحة من طبق الفاكهة وصعدت لسطح البيت أبحث عن بعض الهدوء، وقفتُ أمام الحجرة الصغيرة التي كان يسكنها خروفا العيد، وأتذكَّر مشهد الذبح في الصباح، كانا قد صارا صديقَين نناولهما البرسيم ونشاهدهما وهما يشربان الماء، لكنَّنا التهمْنا نصفهما اليوم على الأقل .

لم ألحظ قريبيَّ وهما يصعدان السُّلَّم الخشبي ويقِفان خلفي، وفي لحظةٍ دفعاني بكل قوتهما فدخلتُ حجرة الخراف، ووقعتُ على أثارهما، وأفسدت فستان العيد الأصفر، كدت أصرخ فيهما وأُهدِّدهما أن أقول لأمي، لكنهما دخلا الحجرة بسرعة وأغلقا الباب، كبَّلني عزيز بحبلِ الخروف، وكان في التعليم قبل الجامعي وأخوه يصغره بعامَين، ووضع منديلَه على فمي وكتم نفَسي حتى هدأتُ، ثم فكَّ رياض المنديل بعدما وعدتُه ألا أصرخ، طلبتُ من عزيز أن يتركني لكنَّه قال لي إنه ليس عزيز، فناديتُ رياض وطلبتُ منه الطلَب ذاته لكنه قال إنه ليس رياض، بَقِينا على هذا الحال ساعتَين، كانا يضحكان خلالها ضحكاتٍ شريرة ويُغيِّران نغمة صوتهما لتبدو مُرعبة.

وحين كدتُ أفقد الوعي، حلَّا وثاقي وأخبراني أنني إذا حكيتُ لأحدٍ ما حدث سيخطفانني من جديد وسيَذبحانني كما حدث لخراف العيد اليوم. فتحا باب الحجرة وهُرعا للنزول، بينما كنتُ أرتعش، وأحاول أن أقف على قدميَّ لكنهما كانا يخذلاني، كنتُ في العاشرة من عمري عندما حدث ذلك، وأذكر كيف جرجرتْني أُمي أمامها بطول الصالة وشاهدَني الجميع وهي تسبُّني وتتَّهِمُني بالبلاهة والتخلُّف لأني أفسدتُ فستان العيد، ولعبتُ في حظيرة الخراف.

المرة الأخيرة التي نمتُ فيها في بيت جدَّتي، كنَّا نقضي نهاية الأسبوع في يومٍ شتوي وانزلقتُ على سُلَّم الدور الثاني ووقعتُ على ظهري، وكان يؤلِمني جدًّا، وبقيتُ طولَ اليوم

أتحرك بصعوبةٍ وعندما نمتُ لم أعانِ من صعوبات النوم التي طالما واجهتني في المبيت لدى جدَّتي، ولم تُقابلني العفاريت تلك الليلة ولم يئنَّ البيتُ في أُذني، لأنَّ صوتَ أنيني كان أعلى.

لكني استيقظتُ في الصباح على ألَم رهيب، كأن أحدًا ملتصقٌ بظهري، يجلس على رُكبتِه جواري ويضغط بشيءٍ لزِج على ظهري في مكانِ الألَم بالضبط، كدتُ أصرخ من الوجَع لكني سمعتُ صوت عمّي يُتمتم بكلماتٍ غامضة لم أتبيَّنها، عرفتُ أنه هو من يقف هناك، لكني لم أعرف ماذا يفعل، هممتُ بالتحرُّك لكنِّي تصنعتُ النوم. وفجأة فُتح الباب وكانت أمِّي التي صرخت ونادت جدَّتي وأبي، لم أستطع فتح عينيَّ وأكملت تظاهُري بالنوم، حتى قالت جدَّتي لأمِّي أن تخفض صوتها حتى لا تستيقظ البنت، وانسحبوا جميعًا من الحجرة، بعد قليلٍ دخلت أُمي للحجرة، وأيقظتني أو هكذا ظنَّت وبدلًا من أن تصفعني أو تُوبِّخني، أخذتني في حُضنها، كانت تلك ذكرى طيبة وسعيدة ونادرة بيني وبين أُمي التي كانت تبكي بشدةٍ وتُقبل شعري ورأسي.

لم نذهب لبيت جدَّتي مرةً أخرى بعد ذلك اليوم، ولم أُقابل عمي الأصغر هذا من وقتها.

احتجتُ لسنواتٍ كثيرة للتخلُّص من البنت الصغيرة وجسدها، والأشياء الكثيرة التي تُخيفها وتُفزعها، احتجتُ لتعلُّم المُضي بين حشائش الأمور الممنوعة عليها دون أن أخشى لدغة الثعابين.

خاصةً بعد موت أُمي، حيث وجدتُ نفسي في بيتٍ به رجل هو أبي، وشابَّان هما أخواي التوءم. كنتُ أشعر بالحرج لدرجةٍ فوَّتت عليَّ الحزن على وفاة أُمي، كنتُ أفكر أين سأُخفي ملابسي الداخلية، وماذا سأفعل وقتَ المرَض الشهري، وكيف سأنام في بيتٍ واحدٍ معهم بلا سيدة أخرى.

كنتُ أمشي جوار الحائط وأنا أتمنَّى أن ينفتح ثقب كبير به ويبتلعني حتى أتخلص من الخوف والغضب الذي أشعر به ولا أعرف كيف أُعالجه أو أتخلَّص منه، حتى جاء اليوم الذي انشقَّ فيه الحائط، وخرجت منه يدٌ رمادية خشِنة وسحبتني للداخل، لا أذكر كم بقيتُ في ذلك الظلام، ولا كيف احتملتُ كل تلك الأشباح التي مزَّقَت فستاني وجرَّدتني من ثيابي، كيف لمسَتْ كلَّ جزءٍ في جسدي واعتصرت ثدييَّ ومصَّت شفتيَّ حتى أدْمَتْها، لم أصرخ أو

أقاوم، لكنّي أذكر الرجفة التي سرَتْ في لحمي، كان كل جزءٍ ينتفِض بمفردهِ كأنه طائر مقتول يلفظ روحه.

عندما عدت عبر الفجوة، لم أعد أنا، وإنما تغيَّرت.

صرتُ لا أخشى الظلام ولا البرد ولا ليل بيتِ جدَّتي، ولم أعد أشعر بالحرج من الرجال في حياتي، أمشي في الطريق لبيت جدَّتي دون أن تتبدَّل الشوارع، وامتلكتُ الشجاعة لأمُرَّ أمام البيت الذي صار خربًا ومهجورًا، وعندما عبرتُ من جواره ملأتُ رئتيَّ بالهواء وتنفستُ بعمقٍ حتى وأنا أسمع في الخلف ما يُشبه الأنين.

البخت

بدت "سيدة" الشهيرة بـ "نورا"، شاحبةً وصفراء الوجه في التجمُّع العائلي الأخير، أرجع البعض ذلك لحُزنها هي وزوجها على مرض ابنهم الصغير "عمار" الذي وُلِد منذ عشر سنوات بعَيب خلقي بالقلب، ظلَّ التعامُل الدوائي معه ممكنًا حتى أعلنها الطبيب مطلع العام: "الولد يحتاج لتدخُّلٍ جراحي، عملية قلب مفتوح" ممَّا اضطرهما للمُضي خلف الإجراءات الحكومية الطويلة حتى أمَّنا له دورًا في طابور مُمتد في المعهد الحكومي لأمراض القلب. لم يخفِ الطبيب عليهم أن الحالة صعبة وقد لا تصمد حتى يحين دور الولَد، لكنهما قرَّرا أن ينتظرا الدور، وقالا إن الولد في النهاية لن يأخذ غير نصيبه.

وأن الله الذي منحهما "عامر" ومن بعده "عمار" لن يكسر فرحتهما أبدًا.

لا يعرف أحد من العائلة على وجه التحديد الحالة المادية لعبده زوج سيدة، فقد قضى خمسة عشر عامًا يعمل في بلدٍ عربي، كانت مهنته الأصلية هي النجارة لكنه منح نفسه لقب مقاول؛ ذلك اللقب الذي حرَّفته عائلته من وراء ظهره لـ "مقاوح"، لأنه في الحقيقة كان يمدُّ يده في كل شيءٍ له علاقة بأعمال المباني والمنازل الداخلية، فكان يعمل أحيانًا في النجارة وأحيانًا يأخذ منزلًا من بابه، ويقوم بدور السمسرة بين العميل ومن يحتاجهم من عمَّال لإنهاء تجهيز المكان من دهانات وسباكة وغيرها.. طالما قال إن الرزق كان شحيحًا وأن عمله بالبلد العربي الذي سافر له لم يكن يُحقق شيئًا يستحق غربته وشقاءه.

هو في الحقيقة لم يكن بارعًا في عمله، لكنها كانت تجيء هكذا بالحظ، ساعده أخوه الأكبر للسفر في بداية حياته وعمِل معه فترةً مساعدًا في مطبخ الفندق الذي يعمل به في البلد العربي، أخوه الأكبر الذي تخرَّج من إحدى المدارس التجارية في السبعينيات، وسافر للعمل وكان يُرسل مساعداتٍ كثيرة لوالده ساعدت في زيجات خمس بناتٍ هن أخواتهم، لكن "عبده" اعتذر لأخيه منذ البداية قائلًا إنه لن يستطيع المشاركة في التزامات العائلة تلك، لأنه صاحب مرض، لم يتبيَّن أحدٌ ما المرض الذي ادَّعى عبده أنه يُعاني منه منذ ذلك الوقت المبكر في شبابه وحتى الآن، وأضاف أنَّ أخاه مَدين لوالده بمساعدته في تزويج البنات لأن أباه أنفق عليه حتى حصل على شهادةٍ نفعته في حياته، بينما لم تسمح ظروفه بإرسال عبده

للمدرسة، فهو كما يقول لا يعرف غير كتابة اسمِه والقراءة بصعوبةٍ والتعامُل البسيط مع الأرقام والحسابات. ورغم أن ذلك غير صحيح لأن الأب أرسله هو أيضًا للمدرسة، لكنه كان بليدًا وبطيءَ الفهم ووصل حتى الصف الثالث الابتدائي بصعوبةٍ بالغةٍ حتى إن أُختَين أصغر منه مرَّتا عليه في الصفِّ وتجاوزتاه، وهو الذي قرر بإرادةٍ حرة في بداية العام الدراسي التالي أن يرتدي ملابس العمل، وذهب لتعلُّم صنعة وتنقَّل في عدة مِهَن حتى استقرَّ في النجارة.

أخوه كان كريمًا وعزيز النفس وأبى أن يأخذ منه قرشًا لمساعدة عائلته إلَّا برضاه، وهو ما لم يحصل عليه أبدًا.

بعد ثلاثة أعوامٍ من العمل مع أخيه، أعلن أنه سيستقلُّ بنفسه ويبدأ أعماله الخاصة، حذَّره أخوه أنه ليس لدَيه خبرة ولا علاقات، لكنه أخبره أنه اتخذ قرارًا لن يرجع فيه.

استطاع عبده بإلحاحِ اللزج، وهو أمر مشهور به بين عائلته، أن يحصل على العمل، بل ويبقى في البلد العربي خمسَ سنواتٍ إضافية بعدما انتهى عقد أخيه وفشل في تجديده، فعاد لبلدِه وفتح مطعمًا صغيرًا، وأشرك والدَه في إدارتِه مُسندًا له أعمالًا بسيطةً لتكون طريقته في مساعدته دون أن يجرح مشاعره، وتزوَّج فتاةً طيبة اسمها "نورا" على اسم أمِّه رحمها الله، وكانت تلك صدفةً طيبة أحبَّتها العائلة كلها.

عندما عاد عبده وقرر الاستقرار في بلده، أخبر الجميع أنه خسر كل ماله في صفقة أخيرة كان قد عقد عليها آمالًا كبيرًا، وأنه يمرُّ بضائقةٍ مالية قاسية، ولم يجنِ من سنوات الغربة شيئًا سوى الشعر الأبيض الذي سرح في رأسه والمرض.

رغم أنهم يعرفون عبده جيدًا إلا أن عائلته تفاجأت عندما أخبرهم بأنه سوف يتقدم لخطبة "سيدة" ابنة عمِّ فؤاد البقال..

تردد عبده على الرجل منذ عودته لأنه كان ينوي أن يفتح مشروع بقالة صغيرة، وأراد أن يستفيد من خبرة الرجل ويعرف أماكن الحصول على البضاعة والثلاجات بالتقسيط، لأن ظروفه ضيقة.

في أثناء ذلك توطَّدت علاقته بالرجل وابنتَيه سيدة وسهير.

ورغم أن سهير هي الأصغر لكنَّه اختار أن يتزوَّج الأخرى، ليس لأنها تعمل في وظيفةٍ حكومية جيدة ولدَيها دخل ثابت فقط، فالأخرى أيضًا لدَيها صنعة تكسب من ورائها ذهبًا،

حتى إنها تقبض بالأسبوع في عملِها بكوافير الأناقة ما يُعادل مُرتب أختها الشهري، لكنه في النهاية يبقى عملًا حرًّا قد يُواجه الكثير من العقبات، ولا يمنحها مزايا قانون العمل التي تمنحها لأختها من حيث إجازات الولادة وساعات الرضاعة مدفوعة الأجر، لم يكن ذلك هو السبب الوحيد لتفضيله سيدة ولكن لأنها بيضاء وقصيرة ومُمتلئة قليلًا، بينما أختها خمرية البشرة وممتلئة أكثر منها مرتين ونصفًا، فكر أنها بالتأكيد تأكل أكثر، قالها لنفسه هكذا "تحتاج ميزانية أكل لوحدها".

كما أنه فكر أن البيضاء ستجعله ندًّا لأخيه، لأن زوجته نورا بيضاء وممشوقة القوام تُشبه ممثلة سينما، لا يتذكَّر اسمها لكنه يُحب أفلامها. وكلما ظهرت على شاشة التليفزيون يعلِّق أخواته البنات أو أبوه بأنها تُشبه نورا زوجة أخيه.

كل تلك الأسباب جعلته يفضل سيدة على أختها.

خلال عام كان عبده اشترى بيتًا قديمًا مُتهالكًا قريبًا من بيت أبيه وبيت عمِّ فؤاد، وجدَّده قليلًا بحُكم خبرته في أعمال المقاولات، فبات مثل عجوزٍ سبعينية تضع زينة على وجهها تُناسب عروسًا عشرينية، لكنه قال للجميع إنه سيُصلح البيت بالتدريج كلَّما جمع مبلغًا، وأن الحياة مُمتدَّة أمامه هو وعروسه بالكفاح والجهد .. البيت الذي لم ينتهِ حتى الآن من العمل فيه، ذلك لأنه لا يُنهي أيَّ مشكلةٍ من أعمال صيانته بحلٍّ جذري، فإذا احتاج مكانًا لتغييرٍ كامل في أنابيب السباكة اكتفى بتغيير وصلة ماءٍ واحدة، وهكذا لا تنتهي أبدًا الأعمال التي تبدو أبدية في ذلك البيت.

انشغل عبده أيضًا في تحويل شقةٍ صغيرة في الدور الأرضي لمحلٍّ تجاري، وساعدته زوجته في الحصول على الموافقات الحكومية بحُكم عملها، وساعده والدها في الحصول على بضاعة وثلاجات للمياه الغازية والجبِن.

وأصبح عبده صاحب بيتٍ ومحل للبقالة، سحب كرسيه وجلس أمام البيت، وشعر برضًا كبير لأنه حقَّق بعض أحلامه.

رغم أن محل بقالته كان شِبه فارغ من البضاعة التي تجذب الزبائن وتُحقق ربحًا جادًّا، وذلك بسبب تقطيره وحرصه في شراء البضاعة خوفًا على رأس ماله الذي لا يعرف أحد شيئًا عنه، اقتصر المحلُّ على بيع أنواعٍ رخيصة من الجبِن والمعلبات وبعض أكياس البطاطس

والحلوى للأطفال والمياه الغازية، علب قليلة من السجائر والدخان يبيعها فرطًا للشباب المُتسكّعين في الشارع، أوراق البخت الصغيرة وهي ورق مُغلف يُباع للأطفال تحتوي الورقة على حبة حلوى ناشفة ورخيصة ولعبة بلاستيكية صغيرة .. ورغم عدم جدّيةِ هذا النوع من الورق إلا أنه المُنتج الذي اشتُهرت به بقالة عبده، فكان الأطفال ومِن بعدهم الكبار يُسمُّون دكانه "محل عم عبده بتاع البخت".

أخبر عبده الجميع أن صدفةً سعيدة أخرى حدثت في العائلة لأن سيدة لها اسم تدليل يُناديها به الجميع في بيت أبيها ومقرِ عملها هو نورا (وهو الأمر الذي ربما لم يكن حقيقيًا) لذا سنلتزِم جميعًا بهذا الاسم، بعد تدريبٍ شاقٍ ومواقف سخيفة عديدة غاب اسم سيدة وطفا اسم نورا زوجة عبده.

والذي كثيرًا ما أكمل تعريف الناس بها قائلًا إن اسمَها على اسم أمّهِ رحمها الله.

بدت "سيدة" الشهيرة بـ "نورا"، شاحبةً وصفراء الوجه في التجمُّع العائلي الأخير، أرجع البعض ذلك لحُزنها هي وزوجها على مرض ابنهم الصغير "عمار".

كان التجمُّع في بيت الأخ الأكبر، والذي حلَّ محل أبيه بعد وفاته، فأصبح بيتُه هو بيت العائلة، وساعد في ذلك بشاشة "نورا" شبيهة مُمثلة السينما وحلاوة استقبالِها ومَحبَّتها لعائلة زوجها، وطعامها الذي يُشبه ما يُقدَّم في المطاعم الكبرى..

الأمر الذي طالَما علَّق عليه "عبده" بأنه على يقينٍ أن أخاه هو من يطهو في أيام العزومات وليست زوجته كما تدَّعي، يقول ذلك التعليق كل مرةٍ وفمُه مُمتلئ عن آخره بالطعام ويضحك حتى يهرب الفُتات من فمه هنا وهناك، وتُشاركه زوجته "سيدة" (نورا) الضحك لكن بصخبٍ أقل، فتبدو ضحكتها ماسكةً للعصا من المُنتصف.

تضحك لدعم زوجها لكنها ضحكة غير كافية لإثارة سخط الآخرين.

بعد الغداء انفرد عبده بأخيه، وطلب منه مَبلغًا من المال ليُساعد في تكاليف علاج عمَّار ابنه، قال له إن العلاج يُكلف كثيرًا، وأنه لا يبخل على ولده بشيءٍ ويوفر له كل ما يُوصي به الأطباء، لكنه يأمُل أن يقف أخوه بجواره حتى يتمكَّن من نقل الولد لمُستشفًى خاصٍّ، حيث يُجري الجراحة بعيدًا عن انتظار دَورٍ قد يأتي الموت قبلَه.

دبَّر الأخ الكبير مبلغًا ليس قليلًا، الحقيقة أنه كسَر وديعةً كان قد جنَّبها للزمن، من أجل تعليم ابنته الوحيدة وتزويجها، الأمر الذي بدا هينًا أمام حياة ابن أخيه الصغير.

ما حدث بعد ذلك أن عبده اشترى بجزءٍ من المبلغ الذي منحَه له أخوه سيَّارة حمراء صغيرة، جزء من المبلَغ لأنه لو استخدمَه كاملًا لاشترى سيارةً جديدة؛ تشعر أحيانًا أن شيئًا ما يجذب عبده للكراكيب، للأشياء التي سبق استخدامُها، التي تقِف على حدِّ حيواتٍ سابقة كثيرة، لم تكن السيارة الحمراء جديدةً لكنها قوية وجيدة، واستخدمها لتوصيل زوجته كلَّ يومٍ من وإلى عملها وتوفير المال الذي رأى أنه يُكلف ميزانية كبيرة من دخل البيت، وأخبر أخاه وهو يُعاتبه على شراء السيارة وعدم استخدام المال لعلاج الولد، أنه يَغار على زوجته من ركوب المواصلات العامَّة؛ قالها هكذا "طالما كنتُ أغار عليها من نظرات الرجال وزحام السيارات العامة لكن الإيد قصيرة"، وأكمل أنه لن يشعر به لأن زوجته طالما كانت مُعززة مُكرَّمة في بيتها، بينما تشقى زوجته لتساعده على العيش، وفي النهاية زوجة أخيه أيضًا هي لحمُه وعرضه وما فعله يعدُّ خيرًا كبيرًا سيمنحه الله ثوابه.

كانت سيارة عبده الحمراء محلَّ تندُّرٍ من العائلة كما كانت حياته كلها، لأنه استخدمها أيضًا في نقل بضاعته القليلة للمحل، كراتين البسكوت والحلوى، وأكياس المكرونة والأرز وغيرها من السلع، وأصبح يحتفظ في صندوقها بالبضاعة وتموين البيت، فأصبح مشهدًا مُعتادًا أن يمنح أحدَ أبنائه المفتاح في منتصف الليل ليحضر زجاجة زيتٍ من المُدعم الذي يصرف في بطاقته التموينية، حيث يذهب بالسيارة أول كل شهرٍ للحصول عليه لكنَّه لا يُدخِله البيت حتى لا يَستهلكه الأولاد وزوجته ببذخ.

يبدو مرتاحًا أكثر وهو يُخرج لهم كيس أرزٍ أو مكرونة أو علبة صلصة من صندوق السيارة، بدلًا من فوضى ترك الخزين في المطبخ.

بعد أقلَّ من أسبوعين على التجمُّع العائلي الأخير الذي بدت فيه سيدة الشهيرة بنورا شاحبة، وصفراء الوجه وعكرة المزاج، ثقيلة الحركة ومُتعرِّقة وربما قليلة الكلام، وهو حدث لا يتكرَّر كثيرًا كظواهر الخسوف؛ فهي تُحب أن تطمئنَّ على أحوال الجميع كما تقول دائمًا، تتأكَّد من أنها تعرف سنَّ كل أولاد عائلة زوجها وسنوات دراستهم ومجموع نهاية العام، وأنواع طعامِهم المُفضل والهدايا التي يحصلون عليها، ومشاريعهم المستقبلية وكيف تدير

كل أختٍ حياتها وكيف يعاملها زوجها. كانت بارعة في شفط المعلومات من الجميع كما تسحب المكنسة الكهربائية التراب من السجاد؛ مهما كنتَ حريصًا على عدم البَوح بمعلومةٍ أو ترغب في بعض الخصوصية ستُهاجمك سيدة وتعرف ما تريد، وفي المُقابِل تُشعرك دومًا أنه ليس لديها شيء لتُخبرك به، إذا ما تحوَّلت دفَّة الحديث نحوها تُتمتِم بكلماتٍ غامضة قبل أن تعلو وجهها نظرة حاسمة وتختمها بقول "الحمد لله على كل حال"؛ لذلك ورغم معرفة الجميع بعبده وسيدة فإن اتصال عبده بأخيه الكبير ليُخبره بالمعجزة التي حدثت كان مُدهشًا للجميع بلا استثناء، حتى إن إحدى الأخوات أعلنتها صريحةً بأنها ستقاطع عبده وزوجته للأبد، وأنها سئِمَت من خُبثهما، إلَّا أن الأخ الأكبر طلَب منها أن تهدأ وتُخزي الشيطان وأن تكون حسنةَ الظن، وأنه حتى لو كان الأمر كما يبدو فلا يُمكن لشيءٍ أن يقطع صِلة الدم بين الإخوة.

في اتصالٍ مُتأخرٍ بشكلٍ مُقلق، أخبر عبده أخاه أن الله رزقَه بـ "عمير" وأنه هو وزوجته لم يعرِفا بحملها طيلةَ الشهور الفائتة، ظنًّا أنها تُعاني ضعفًا ما أو حزنًا بسبب ما أصاب عمَّار، لكنها معجزة الله الذي أراد أن يَمنحهما عوضًا حالَ مات ابنهما قبلَ ميعاد الجراحة أو حتَّى بسبب مُضاعفاتها.

لم يجد الأخ الأكبر ما يُعلق به، بارك لأخيه وصمت.

لكن نساء العائلة ظللنَ يلُكْنَ تلك القصة المُضحكة لسنوات، خاصةً بعدما أضافت لها سيدة بعض التفاصيل؛ قالت إنها كانت في المطبخ بعد العصر تَقلي قرنبيطًا وفلفلًا للغداء، لأنه الطعام المُفضَّل لعبده، وفجأةً شعرت بألمٍ شديدٍ وضغطٍ أسفل بطنها، ظنَّت في البداية أنه ألَم القولون أو أنَّ قطعة فلفل حامية كانت قد حشرتها في لقمة ومعها قِطعة قرنبيط ولاكتها بينما تُعِد الطعام هي السبب في ذلك الألم، لكن ما إن سال ماؤها على الأرض حتى ظنَّت أنها تحتاج للذهاب للمُستشفى، هنا تقف لحظةً وتنظر في عين مَن تحكي له وتتَّكِئ على الكلمات، رغم أنِّي متزوجة من سنواتٍ وأنجبتُ قبل ذلك مرَّتَين ولادة طبيعية، لكني لم أعرف أنَّ الماء الذي سال منِّي من المُمكن أن يكون طفلًا آخر، فأنا قطة مغمضة ولستُ كبنات هذه الأيام.

كانت سيدة الشهيرة بنورا قد جاوزت الخامسة والأربعين عندما أنجبت عمير، لكن الأمر مرَّ دون مشاكل صحية، ساعدها ذلك في خفض سنِّها عشر سنوات، رغم أن كلَّ سيدات العائلة يَعرفنَ عمرها لكنَّها تدلَّلت على حسِّ المولود وقالت في وجه الجميع أنها محظوظة لأنه رغم أنها جاوزت الخامسة والثلاثين إلا أنَّ الأمر مرَّ على خير.

بدت "سهير" في سبوع ابن أختها مُمتلئةً أكثر من أي وقتٍ آخر، حتى إن ذلك أثر على حركتها بشكلٍ ملحوظ، اشتكت للجميع من مشاكل جسيمة في قدَمِها بسبب وقوفها كلَّ يومٍ أكثر من عشر ساعاتٍ في عملها، كانت قد استقلَّت بعملها وأصبحت تمتلك مركز تجميلٍ صغيرًا لكنه مُزدحم دائمًا، واستعانت بثلاث فتيات للعمل عندها، لكنها لم تتزوج .. رغم محاولاتها وسعي أُختها وعبده لتزويجها أكثر من مرة خاصةً بعد وفاة أبيها، أصبحت تعيش في الشقة وحدها وحصلت على مبلغ معقول، عندما استرد صاحب العقار محلَّ والدها، اقتسمته مع أختها، ورغم كلِّ ذلك لم تجذب سوى رجالٍ عاطِلين عن العمل أو سيِّئي السُّمعة والسلوك للتقدُّم لخطبتها مما يجعل الفشل حليفًا لكل تلك المشاريع.

نجا عمار من الموت، وأُجريَت له الجراحة، كَبِر وصار شابًّا في العشرين من عمره، قضى فترة صِبا صعبةً هو وأخوه، ففور تمام شفائه، تكلَّم والده عن جلوسه في البيت في الصيف، وطلب منه هو وأخيه العمل لادِّخار مصاريف الدراسة، لأنه كما يعرفان ظروفه صعبة وحالُه ضيق، امتهنا مِهنًا كثيرة وعمِلَا في كنسِ محلات الطعام وتحميل البضائع في المخازن، وطالما تحدَّث أخوه عبده معه بشأن عمل الأولاد وخاصة المريض، لكنه طالما أخبرهم أنه أصبح سليمًا كما أنهم رجال يجب أن يعتمدوا على أنفسهم. وهو ما كان، وحصل كلٌّ منهما على تعليمٍ متوسط وشقَّ طريقه في الحياة.

حتى أنهما تزوَّجا في بداية العشرينيات هروبًا من جفاف العيش والمشاعر في بيت أبيهم، اختارا أختَين متوسِّطتَي الجمال ومن أسرةٍ فقيرة من ضاحيةٍ بعيدة عن بيت والدهم، تصادَف أنهما عمِلا جوار بيتِهم في جولاتهم الكثيرة لكسب العيش. عاشا في بيتَين متجاورَين، صغيرَين وفقيرَين لكنهما كانا سعداء ومليئوهُما بالدفء والحُب الذي لم يُجرِّباه من قبل.

ظلَّا على اتصالٍ وودٍّ مع أسرتهم، لكن بعد سكنهما بدا عائقًا كبيرًا لميزانية البنزين التي خطط والدُهم أن يستهلكها، لذا كانا هما من يذهبان لزيارته، وكثيرًا ما طلب منهما أن يُعطياه

شيئًا من المال ليشتري غداءً لهما ويقوم بالواجب لأنه في النهاية سيكلف والدتهما عناء تجهيز الطعام والشراب ليُشرفهما أمام زوجاتهم.

بينما بقِي عمير الصغير في حِجر أبيه وأمِّه، يُدلِّلانه بشكلٍ لم يعتد أحد من العائلة رؤيته منهما، كما لو كان ابنهما الوحيد، يَصحبانه معهما في نزهاتٍ بالسيارة التي لم يطأها أيٌّ من الولَدَين الآخرَين، يكتفي والده بأن يُجلسه على كرسي جواره في الصيف ليُعاونه في أعمال البقالة دون أن يُطالبه بالبحث عن عمل بعيدًا عنه كما فعل مع إخوته.

طالَما حضنته سيدة وقبَّلته وهي التي لم تضمَّ أيًّا من ابنَيها الآخرين إلا نادرًا.

عمير من ناحيتِه كان فظًّا ومدلَّلًا، سخيفًا مع عائلة والده ويُعامل خالته الوحيدة بعجرفةٍ رغم حنُوِّها عليه. لم يفلح في الحصول على شهادةٍ متوسطة مثل إخوته لكن أمَّهُ أدخلته معهدًا خاصًّا ولم يعترِض عبده.

أصيبت "نورا" شبيهة مُمثِّلات السينما بفشلٍ كلويٍّ، ودون تفسيرٍ واضح تدهورت حالتها بسرعةٍ وماتت وهي في الثانية والخمسين، تاركةً شابَّةً صغيرة أنهت لتوِّها دراستها الجامعية وزوجًا أرمل لم يُكمل الخامسة والخمسين.

ورغم فداحة المأساة، وقف الجميع في العزاء في غاية الحزن والألم، عبده نفسه بدا متأثرًا، لكن ذلك لم يمنعه من حمل خمسة مصاحف من المُتاحة رحمةً على روحها وزجَّهم في سيارته الحمراء التي ركنَها قريبًا، بعدَها بقليلٍ حمل عشر عُلب مناديل كانت مرصوصة على المناضد أمام المُعزِّين وعاد بها لسيارته، وفي النهاية بينما يودِّع أخاه ويُواسيه لم يستطع أن يمدَّ يده ليُحييه أو يُعانقه لأنها كانت مُمتلئة بزجاجات الماء التي جمعَها في يدِه وحقيبة زوجته، زجاجات مياه معدنية صغيرة كانت توزَّع على الموجودين.

أثَّرت وفاة نورا في ابنتِها وزوجها الأخ الأكبر، واساه الجميع، وإخوته البنات وقفنَ جواره هو وابنته؛ محبةً وردًّا لبعضٍ من ديونه الكثيرة، لكنه في النهاية شعر برغبته في تغيير حياته، حسم أمرَه وباع المطعم والبيت واشترى بيتًا جديدًا في مدينة جديدة هادئة، وقرَّر أن يعيش مع ابنته في هدوءٍ يعتني بحديقة البيت وينتظر أن يزوِّج ابنته لتعيش معه في البيت الجديد وتملأه عليه هي وأولادها.

انقطع عبده فترةً ليست بالقصيرة عن زيارة أخيه، وقف جوارَه يومَ عزاء نورا لكنَّهُ اختفى حتى استقرَّ أخاه في بيتِه الجديد.

فسَّر اختفاءه بأنه انشغل كثيرًا في مشاكل أولاده، وطلباتهم التي قصمت ضهره، وأنه ظن أنه بتزويجهم سيرتاح قليلًا من المسئولية، لكنهم يَعودون إليه دومًا بطلبات لهم ولزوجاتهم، وأنه يُضطر لمساعدتهم بالمال وخزين البيت لأنهم شباب، وهو لا يمكن أن يتهرَّب من دورِه كأبٍ كريم ومُضحٍ لأبنائه.

ورغم بُعد البيت الجديد أخذ عبده يزور أخاه مرتَين أو ثلاثًا في الأسبوع، يركب السيارة الخضراء التي اشتراها بدلًا من الأخرى التي أهلَكَها الزَّمن وعدم اعتناء عبده بها؛ فهو كما يقول دائمًا لا يستطيع تحمُّل أي مصروفات لصيانة السيارة.

كانت نورا الباقية تذهب معه مرةً كل ثلاث مرات، وتسأله إن كان يُريد طعامًا مُعينًا لتُعدَّه له، لكنَّه طالما شكرَها وصنع لهما الغداء بيده، وأحيانًا تساعده ابنته إذا صادف وجودها في البيت، ولم تكن في عملِها الذي كان في شركةٍ كبيرة. لم تهدأ سيدة حتى عرفت كم تتقاضى من راتبٍ، وعدد ساعات عملها، وكيف يَمضي الوقت بها وبأبيها في تلك المدينة البعيدة الهادئة.

تكرَّرت الزيارات حتى صارت عبئًا حقيقيًّا على البنت وأبيها، خاصةً أن سهير أخت سيدة صارت هي الأخرى شبه دائمة الحضور معهم، كانت تتحدَّث كثيرًا مع الأخ الأكبر عن العملية الجراحية التي أجرَتْها منذ عامٍ والتي استطاعت بسببِها التخلص من وزنها الزائد، وصارت بالرشاقة والخفَّة التي صارت عليها الآن، تُخبِره عن ندمِها في التأخُّر في هذا القرار، وعن السنوات التي أضاعتها حبيسة جسدها المُمتلئ المريض، حتى إنه صار بإمكانها الآن أن تقف كما تُريد لكنها لم تَعُد راغبةً في العمل بيدِها وأنها تُشرف فقط على البنات بالصالون.

لم يقتصر الأمر على ذلك وإنما بدأ الثلاثة يُلمحون أنَّ الوضع في بيت الأخ الكبير غير عادل، وأنه لا يُمكن أن يبقى هكذا دون زوجةٍ تراعي شئونه وتؤنس وحدته، طالما أخبرَهم أنه يَعتني بنفسه جيدًا وأن ابنته تملأ عليه حياته ولا يُعاني أيَّ وحدةٍ؛ لأن ذكرى زوجته تؤنسه بما يَكفي. ربما ظنَّ عبده أنَّ إلحاحَه الذي أفلح في كل أمور حياته سوف يَنجح هذه المرة في تزويج سهير أخت زوجته من أخيه الأكبر.

كان يلحُّ طوال الوقت، حتى إنَّ أخاه توقف عن استقبالِهم في بيتِه وأصبح يدَّعي أنه غير موجود في البيت أو مُنشغل بأمور ما كلما اتَّصلا به ليستأذنا في المجيء.

حتى كانت الزيارة الأخيرة، لم يتَّصِلا قبل مجيئهم للبيت، فكر عبده أنَّ الذهاب هكذا دون ميعادٍ سيمنع أخاه من التهرُّب من استقباله، جهَّزت زوجته حقيبةً صغيرة بها غيار له ولها، ومرَّا على سهير التي حملت هي الأخرى بيدِها حقيبة يدٍ كبيرة بها ملابس للمبيت.

كانت تلك فكرة عبده النَّيِّرة، سنبيتُ هناك يومَين ثلاثة حتى يرى سهير في ملابس النوم، ويتذوق كوب الشاي بالحليب من يدِها في الصباح، فيحنُّ لفكرة وجود امرأةٍ في حياته ويتزوَّجها.

لم ينس عبده أن يمرَّ في الطريق على محطة بنزين وملأ سيارته بالوقود، ودون كلمة أخرجت سهير مالًا من حقيبة يدِها ومنحتْه لعامل البنزينة، وانطلَقا نحو بيت السعادة والأحلام.

عقدت المفاجأة لسان الأخ وابنته، دخلت الفتاة حجرتها واختفت هناك، وبعد الغداء استأذنهم الأخ الكبير واختبأ هو الآخر في حُجرته، وترك لهم البيت يتجوَّلون فيه بملابس النوم، مرَّ اليوم الأول.

في صباح اليوم التالي اغتسل الأخ الأكبر وخرج لصلاة الجمعة ومرَّ على أخيه الذي كان جالسًا في صالة البيت الكبيرة حوله فاكهة وأثر لبٍّ وسوداني من أثر سهرة أمام التلفاز، ابتسم عبده وقال لأخيه إنه هو وزوجته وسهير سَهِرا قليلًا لمشاهدة فيلم عربي قديم.

وطلب من أخيه بعدما يُنهي الصلاة في المسجد المجاور أن يشتريَ إفطار يوم الجمعة من الفول والطعمية والخبز الساخن بينما تُعد زوجته الشاي والبيض في المطبخ، لم ينسَ أن يُخبره أنه كان ينوي الخروج لشراء الإفطار لكنَّه لا يعرف المنطقة جيدًا ويخشى أن يتوه، وهنا أطلَّت سهير من باب حجرةٍ مجاورة وهي تضع مكياجًا لا يصلح للصباح، وترتدي جلباب بيت أحمر نصف كم طويلًا.

وطلبت منه أن يُحضر معه كرنبةً كبيرة لأنها ستصنع له غداءً يستاهل فمه، لحقت به عند الباب وهمست بدلالٍ أنها تُريد خضرة كثيرة للمحشي.

لا يبدو أن ما حكاه الأخ الأكبر وابنته لباقي العائلة عن الساعة التالية في ذلك النهار من يوم الجمعة سيطويه النسيان أبدًا، تمتلئ العيون بدموع الضحك وصوت القهقهات لا ينقطع لدقائق طويلةٍ كلما مرَّ الموضوع في تجمُّع عائلي.

عبده وزوجته وأخت زوجته بملابس النوم يصرخون في الشارع كالمجانين، يَروحون ويجيئون حتَّى تجمَّع الناس في ذلك الحيِّ الهادئ، يجلس عبده على الأرض يضع التراب فوق رأسه يمسحُ بجسده الرصيف، قبل أن يرتمي وهو يُغرغِر بسائلٍ أبيض من بين شفتَيه.

نظْرتُهم وهم مُتكوِّمُون في سيارة أجرة طلَبها لهم الأخ الكبير ودفع حسابها ووقف يزفر بارتياحٍ وهو يراهم يبتعدون حتى تلاشَوا من الحيِّ ومن حياته كلِّها.

طالما ردَّد عبده لزبائنه وزوجته حكاية غدْر أخيه وعائلتِه كلِّها وعدم وقوفهم جواره رغم كلِّ تضحيةٍ بذلَها طوالَ حياتِه لهم.

يحكي عبده عن سيارته الخضراء التي اشتراها بتعب وشقاء سنوات، وكيف سُرِقت وتبخَّرَت من أمام بيتِ أخيه في صباح يوم شؤمٍ كان قد قرَّر فيه أن يبيتَ عنده ليؤنِسَه في وحدته ويُواسيه في فقد زوجته.

سيارته الخضراء التي رفض أخوه أو أيٌّ من أخواته البنات أن يُساهموا معه ويجمعوا له مبلغًا ليتمكن من تعويض خسارته.

لكنه وقف وحيدًا كما كان دومًا في مواجهة المصائب والابتلاءات.

عبده الذي يقضى وقته جالسًا على كرسيه المُخلخل أمام بيته المُهترئ يحلم أن يقتني سيارةً أخرى شرط ألَّا تكون خضراء. وألا يَستخدمها أبدًا في الذهاب لطرقٍ وأحياءٍ بعيدة ومُمتدة وهادئة.

نهى محمود

نائب رئيس تحرير بجريدة الجمهورية صحفية

كاتبة وروائية مصرية صدرلها عدد من الكتب والإصدارات الأدبية

رواية الحكي فوق مكعبات الرخام ط1 دار ميريت 2007

ط2 دار الشروق 2009

رواية راكوشا دار ميريت 2010

رواية هلاوس ط1 عن دار الصدى دبي 2013

ط2 عن دار روافد 2014

كتاب كراكيب نهى دار مزيد 2010

كتاب "بنت من ورق" هيئة قصور الثقافة 2014

مجموعة قصصية الجالسون في الشرفة حتى تجئ زينب داربتانة للنشر 2017

رواية سيرة توفيق الشهير بتوتو داربتانة للنشر 2018

كتاب « احلام البصلة الحمراء» أطفال سلسلة قطر الندى هيئة قصور الثقافة 2015

قصة « صيف « في سلسلة 3 حواديت عن الهيئة العامة للكتاب 2016

الجوائز:

جائزة دبي الثقافية عام 2010 عن رواية « هلاوس»

جائزة ساويرس الأدبية الدورة ال14 عام 2019 عن مجموعة قصصية "الجالسون في الشرفة حتى تجئ زينب"